جاك بيرك

Jacques Berque

الكتاب : جاك بيرك

المؤلف : **مصطفى شريف**

الطبعة : الأولى 2019

عدد الصفحات : 128

القياس : 13 × 19

الإيداع القانوني : 978-9954-705-50-6

الترقيم الدولي : 2018MO4659

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب

6، زنقة التيكر

هاتف : 212522810406+

فاكس : 212522810407+

markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان

الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي

هاتف : 9611747422+

فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

جاك بيرك
Jacques Berque

مصطفى شريف

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

اللجنة العلمية

رئيسا اللجنة

عبد العزيز السبيل — أمين عام جائزة الملك فيصل

معجب الزهراني — مدير عام معهد العالم العربي

الأعضاء

بطرس حلاق

رشدي راشد

حسين الواد

فيليب بتريا

التنسيق

الطيب ولد العروسي

أميرة المنيعير

المحتويات

عتبة.................. 7

تقديم وتحليل حياة وفكر المستشرق

بقلم مصطفى شريف.................. 9

ترجمة مقتطفات من نصوص جاك بيرك.................. 62

ترجمة مقتطفات من نصوص

حول جاك بيرك.................. 100

قائمة أعمال جاك بيرك.................. 125

عتبــة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزًا مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

عبد العزيز السبيل　　　　　　معجب الزهراني

يعد جاك بيرك واحدًا من أعظم علماء القرن العشرين المتخصصين في العالم العربي والإسلامي. ولد بيرك في فرندة بالجزائر سنة 1910، وتوفي في فرنسا في (سانت جوليـان-أون-بـورن Saint Julien-en-Born) في منطقة لاند (Landes) سنة 1995. كان جاك بيرك يحب بعمق الحضارة الإسلامية والثقافة العربية والبحر الأبيض المتوسط. لقد كان بمثابة همزة الوصل بين الضفتين كما كان يصف نفسه، فمكانته وعمله الشغوف، وتعددية اختصاصاته تجعل منه شخصية لا تصنف في خانة محددة.

تكوينه وسيرته

بعد أن قضى جزءاً من دراسته في جامعة الجزائر، انتقل جاك بيرك إلى جامعة السوربون ليتابع أبحاثه، حيث كان لديه أساتذة مرموقون؛ من بينهم جورج ديفي (Georges Davy) ومارسيل موسا (Marcel Maussa) . لقد قطن جزءاً كبيرًا من حياته في المغرب العربي والجزائر، والمغرب بصفة خاصة، وذلك من سنة 1910 إلى غاية 1953 موظفًا

وباحثًا، كما زار جميع الدول العربية لدراستها عن كثب. بعد دراسة القانون والآداب، وترشُّحه في امتحان التخرج في الآداب الكلاسيكية سنة 1932، ثم عمله باحثًا في جامعة السوربون في العلوم الاجتماعية، تخلى عن مسيرته التعليمية، وعاد للعيش في الجزائر سنة 1934، لمزاولة مناصب إدارية، في الحضنة على المرتفعات الجزائرية بالتعاون مع والده أوغستين بيرك (Augustin Berque) . كان في الوقت نفسه يتأمل في المجتمع المغاربي، وشرع في نشر مقالات علمية، لا سيما في الدوريات المرموقة، ومنها "المجلة الإفريقية". كان محور اهتمامه في البداية قائمًا على الأنثروبولوجيا القانونية. نشر بيرك في المغرب، حيث عمل مديراً تحت منصب المراقب المدني لمحاكم السكان الأصليين من 1937 إلى 1943، نشر أول دراسة سنة 1935 بعنوان (العقد الرعوي في سيدي عيسى لعقد توظيف راعي من قبل مالك أغنام). كان مهتماً بالتقاليد التجارية والزراعية في المغرب العربي.

استنتج بيرك أن المجتمع المغاربي بشكل خاص والعرب المسلمين بشكل عام، لديهم قيمهم الحضارية الخاصة ومعاني قواعد القانون. لم يكن هذا هو رأي جزء كبير من المستشرقين والباحثين المؤثرين في العلوم

الاجتماعية مثل دوركهايم (Durkheim)، الذين كان لديهم رؤية مختصرة للتكوين الاجتماعي لمجتمعات الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط.

ليس من قبيل المصادفة أن يبدأ بيرك بحثه حول الأنثروبولوجيا القانونية. كان متعاطفًا مع أهداف دراسته، وكانت مسألة العلاقة بين مفهومي الوضع والعقد تثير اهتمامه، ويرى أن الرهان بالنسبة إليه يكمن في تحديد إنسانية الأطراف الفاعلة في المجتمع. كما أن الأنساب والرابطة الاجتماعية في المجتمعات العربية البربرية والمسلمة هي الحاسمة للهوية والعلاقات الاقتصادية والثقافية. أدرك بيرك أن قانون الأحوال الشخصية يسود في المجتمعات المسلمة، وهو قادر على تحمل التدخلات الخارجية، وأنه مرتبط بشبكات التضامن التقليدية.

كونه يتقن اللغة العربية، تنقل بيرك بكل سهولة بين القبائل العربية والبربرية من سنة 1937 إلى غاية 1940، وتمت ترقيته إلى نائب البلدية لمدينة فاس ثم الرباط، حيث عمل في الخدمة السياسية للمحمية ورئيس قسم الأبحاث حتى سنة 1947. ومع ذلك، ونظرًا لتعاطفه مع المسلمين وطموحاته كباحث لإصلاح إدارة الشؤون العربية، تم عزله في الأطلس الكبير حتى سنة 1953.

كتب في كل مرحلة مقالات علمية تصب في موضوع علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، ونظرًا لطاقته ورؤيته المبكرة، انتهز بيرك فرصة عمله الوظيفي لتحرير أطروحة الدكتوراه حول البنى الاجتماعية للأطلس الكبير. انتهت المرحلة الأولى من حياته وتكوينه في سنة 1953، بعد أن قضى ما يقرب عشرين سنة بين الإدارة والمراقبة المباشرة للمجتمع المغاربي.

نظرًا لخبرته وشهادته العلمية (الدكتوراه)، تم تعيينه سنة 1955 أستاذًا في كلية (كولج دو فرانس) في باريس في مادة التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر، كما عين مديرًا للدراسات في كلية الدراسات العليا، التي سمحت له بتوجيه أطروحات الدكتوراه. وهكذا بدأ مشوار الأستاذ اللامع الذي لم يكتف بالتدريس والدراسات على أساس مصادر مكتوبة.

قام بيرك باستطلاعات ميدانية ودراسات خبرة؛ مثل تلك المتعلقة بالتعليم تحت رعاية اليونسكو، التي قادته إلى مهمات في مصر ولبنان. ركز تحليلاته على العلاقة بين النظرية والتطبيق والمعرفة والسلطة. انطلاقًا من هذه الفترة أصبح مؤلفًا وفير الإنتاج، ذا أسلوب أدبي استثنائي،

يفرض أفكاره وطريقة بحثه الأصلية في العلوم الاجتماعية والإنسانية.

شاهد القرن

من حيث التاريخ المعاصر، كان بيرك شاهداً على الحرب العالمية الثانية، وتصفية الاستعمار، والقومية العربية، وسياسات العالم الثالث والقضايا المتعلقة بالإسلام الممزوجة بالسياسة، كما أيد النضال من أجل تحرير الشعوب، لاسيما الجزائرية وفلسطين. كان متضامنًا مع جميع الذين يناضلون من أجل الحرية والصداقة بين الشعوب. وفي هذا السياق، احتج على قرار الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت بحظر الملك المغربي الخامس الذي نفي من بلاده في سنة 1953.

تميز بتفكيره العالمي، وقد كان محايداً يدافع عن حق الشعوب في تقرير المصير، ويرى أن العقل هو القاسم المشترك. لقد كان مفكرًا إنسانياً للقضايا العادلة من أجل التعايش والتعارف.

في هذا السياق، كان يتحاور مع النخب العربية والمسلمة، التي كانت بدورها تقدره على صفاته الإنسانية العالية ومعرفته الموسوعية ومواقفه السياسية العادلة

والشجاعة في المواضيع الكبرى الراهنة آنذاك، التي تمس مستقبل الإنسانية والعلاقات الأوروبية العربية، وظل مخلصًا حتى نهاية حياته للصداقة الفرنسية العربية.

لم يكتف على المستوى الأكاديمي- بتطوير البحث العلمي في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع المقارن والتاريخ الاجتماعي، بل اهتم على وجه الخصوص بالدراسات الإسلامية والاستشراقية، ونحن مدينون له بذلك.

بعد تكريسه الجزء الأول من حياته للثقافة العربية وعلم الاجتماع من الأطلس إلى الفرات، وخلال صراعات تصفية الاستعمار، سخّر نفسه خلال ثلاثين سنة لدراسة الإسلام من جميع الجوانب والأبعاد المقدسة والتاريخية.

لقد نجح بجدارة من خلال إصدار حوالي ثلاثين كتاباً في شرح الثقافة العربية، ثم الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية. وهذا ما جعله يكون متميزًا عن باقي العلماء المستشرقين؛ لذلك تبقى أعماله مرجعًا قيِّمًا وراهنًا، وتُعدُّ مذكراته المعنونة "مذكرات الضفتين" بمثابة شهادة عميقة على خبرته وعمله وارتباطاته. ويمكن تلخيص قوة تفكير جاك بيرك في علم الإسلام في أربع نقاط.

الرؤية العادلة

لقد أثبت أنه يمكن للمرء القيام بالأعمال العلمية، وانتقاد هدف الدراسة واحترامها في الوقت نفسه. فعلى عكس الوضعيين والعلماء التاريخيين والمستشرقين والعلماء الجدد والمثقفين، الذين يعتبرون القرآن أرشيفًا ميتًا، يرى بيرك أن نصه يحمل طابعًا حيًا، وسهل الفهم.

في ظل محاولته لترجمة القرآن الكريم، يقول بيرك: "سأترجمه بالعاطفة التي نليها لنص نحاول الترحيب به في ذاتنا من خلال التماثل معه، استطعنا بلوغ الصدق والالتزام، متبعين في ذلك طريقة لا علاقة لها بالحذلقة المتعجرفة التي يتميز بها الكثير من المتخصصين في هذا المجال... هذا النص الأساسي الذي يحظى بالاحترام، والذي يشع بالقوى، لن أتناوله بالإيمان فحسب، وإنما بالبحث والموضوعية النقدية".

لم يشوه التقليد الإسلامي: "إن النص الذي ما زال تحت أعيننا، والذي لم يطعن في كليته ولا بالتفصيل أي من الفروع العديدة التي مزقت الإسلام، يأتي إلينا مدعومًا بتقاليد مستمرة وبالإجماع".

يعرب بيرك عن إعجابه بجمال النص المقدس،

وأقتبس: "لا داعي لأن يكون المرء مسلماً ليكون حساساً للجمال الفريد لهذا النص، وملاءمته وقيمته العالمية... رغم أن هذا الكلام منبثق من شخص غير مسلم، من لائكي، ومعاملة محايدة ... يجب أن تأخذ الموضوعية بعين الاعتبار الإيمان تحت طائلة عدم التطابق".

كونه عصريًا ومؤمنًا وعالماً في العلوم الاجتماعية، فإنه يرى نفسه مختلفًا عن كل أولئك الذين يمارسون الإثنية المركزية، ويحتقرون الروحانية. فعلى العكس من ذلك، كان يحترم الأخلاق، ويأخذ بعين الاعتبار أهمية قيم الروح في المجتمع.

لقد أدرك بكل تواضع أن الترجمة الكاملة للمجلد غير العادي، أي القرآن، تكاد تكون مستحيلة. حيث كان يصر على كلمة "محاولة ترجمة"، لا سيما وأن اللغة العربية لها خصائص فريدة، مع أنماطها، حيث تتشابك الحواس والفروق الدقيقة والأحداث إلى ما لا نهاية.

كان بيرك يقرّ أن اللغة العربية ليست مشكلة مثل اللغات الهندية الأوروبية، حيث إن تراكيبها المورفولوجية، وقواعدها النحوية، وتعدد معاني الكلمة الواحدة، شيء تختص به هذه اللغة دون غيرها. إنها في نفس الوقت لغة

شعرية ورياضية وسياسية ومنطقية ولاهوتية. يراد بالنص القرآني أن يكون فريدًا ودقيقًا وواضحًا، كما يراد به أن يكون اتصالًا، وبيانًا، وفي الوقت نفسه، تعبيرًا وترتيبًا وتركيبًا وتفصيلاً.

وندّد بالمفكرين الذين يمارسون الغطرسة، ويعتمدون المناهج المختصرة للقرآن: "هناك بعض الانتقادات المتطرفة والمهووسة بنماذج ثقافية أخرى، ترمي إلى تأخير تاريخ تكوين النص القرآني بقرن أو حتى بقرنين، وهو نهج لا يمكن اتباعه".

فقد واصل الحوار مع النموذج (القرآن الكريم)، ولم يدرس الإسلام والمسلمين لإعطاء دروس، بل درسهما كصديق صريح ومحترم ومتعاطف يشترك في ميثاق التعاطف النشط.

فهم الحضارة الإسلامية والقرآن

بعد أعماله حول العروبة، كرس بيرك نفسه للإسلاميات في السبعينيات، مع أعمال تمهيدية رئيسية، مثل المشرق الثاني (1970) والمغرب: التاريخ والمجتمع (1974)، واللغات العربية في الحاضر (1974). كانت هذه الأعمال بمثابة نقطة وصل بين الدراسة والعروبة، وواحدة من وجوه

هوية شعوب الضفة الجنوبية ودراسة الإسلام، وهناك الوجه الآخر لدراساته، يكمن في الإسلام أمام التحدي (1980)، الأندلسيات (1982)، الإسلام في زمن العالم (1984) وعمله الرئيسي، محاولة ترجمة القرآن الذي بدأ في سنة 1974 ونشر في 1990، مع خاتمة لأعماله تحت عنوان "إعادة قراءة القرآن" سنة (1993).

شكّلت هذه الأخيرة دراسته المتعمقة للإسلام بوصفه ديانة ثالثة توحيدية، إذ هي تقدم أساسي في علم الإسلام، فيما يتعلق بقضايا اليوم، وتلك الخاصة بالمدينة الفاضلة والعالمية والتجديد والاجتهاد. كان هدفه هو الانفتاح عن طريق الإسلام، في الزمان والمكان. كما أشار إلى أن الحضارة الكلاسيكية في البحر الأبيض المتوسط كانت يهودية- إسلامية- مسيحية ويونانية- رومانية- عربية، وليس فقط يهودية -مسيحية ويونانية -رومانية.

إنه يتحدث عن القرآن بدقة متناهية، من الداخل: "حتى اليوم بقي القرآن بالنسبة للإسلام... نموذجه البارز، وجسده اللفظي، هذا الوجود الذي يتراكم في وعي ملايين المسلمين التقليديين، هو المرجعية المتسامية... فهي تسمح لهم، إذا جازفنا بالقول، باقتصاد مؤسسة تدريسية (...)

يمكننا- بل وعلينا- اللجوء إلى الوثيقة الوحيدة الصالحة شرعًا في كل وقت وفي جميع أماكن الإسلام: القرآن، لأنه، كما يضيف، عرّف الإسلام، منذ البداية، على أنه علاقة الإنسان بالوحي. فوفقًا للإسلام، يخاطب السمو الرجال في كتاب: القرآن، الرسالة الأساسية". وهذه رؤية بارعة، تعكس الواقع العميق.

اقترحت علي مجلة "لوكروكون "Le Croquant" التابعة لجامعة لومبير دو ليون "Lumières de Lyon" ، بناء على طلب من بيرك، في عدد مخصص له، كتابة مقال عن ترجمته للقرآن. فعنونت نصي "من نفس الوادي"، وهو التعبير الذي لمسه بعمق. في الواقع، كان بيرك ينتمي إلى هؤلاء الذين يكرمون الحياة، ويحترمون حق الاختلاف، ويعرفون معنى الأخوة.

يقول بيرك: "يجب أن تكون قراءة القرآن في شكل سؤال، واستفهام، وإشكال". حيث إنه يسلط الضوء على حقيقة كون القرآن لم "ينزل" لتقييد مشكلات العالم، أو لتسويتها، عوضًا عن المؤمنين أنفسهم، أو لمواساتهم بشأن قسوته، ولكن لجعلهم مسؤولين أمام الاختبار. لقد مكَّن فهمه للقرآن من تقدم البحث،كما أثبت أن بنية النص

القرآني تحتوي على ثلاثة مستويات:

- الغيب، المستوى الأول المرتبط بالأخروية، والغموض، والآخرة، وغير المرئي. وهي مواضيع اللانهاية، والمطلق، والوحدة وعلاماتها. وهذا المستوى الدائم مستقر.
- الكون، المستوى الثاني المستهدف بالخطاب القرآني، الذي هو البعد الكوسمولوجي لمكان الاختبار والوقت الزائل: الطبيعة، الحياة.
- القصص، المستوى الثالث يتعلق بالمستقبل والتطور في تاريخ الإنسانية. والدروس التي تستخلص من الأوضاع والتاريخ.

وردت هذه المستويات الثلاثة التكميلية، الأخروية، الكون، القصص، في ترتيب أصلي يوقظ الأرواح. وعلى عكس الذين يعتقدون أن النص القرآني غامض أو مشوش، فإن بيرك يؤكد أنه متناسق مفتوح وصريح: "إذا تعمقنا في الدراسة وراجعنا الانطباعات السطحية ... فإن الوحدة تظهر في التعددية، أو التعددية تتحقق في الوحدة، حيث تشكل هذه الرسالة الموحدة سمة أساسية في كل من الشكل والمضمون".

يستوعب بيرك النص القرآني بالاستجواب، "يجب أن نأخذ النص القرآني بجدية لترتيب استعراض الأحداث؛ لأن هذا ما اتسم به الوحي الإسلامي". اكتشف أنه - على عكس ما يبدو في بادئ الأمر اضطرابًا واضحًا - فإن القرآن أنزل في ترتيب متماسك ورسالة عالمية: "إنه ترتيب متزامن، يصف تضافراً في الحس السليم للتفاهة، فيما أسميه الإنسانية المتعالية عن جميع الرسائل النبوية، التي تقول في مجملها تقريباً نفس الشيء، وحتى ما ستقوله الأخلاق العلمانية".

إدراك خط الوسط

لقد فهم جاك بيرك وأثبت حقيقة الجمع والوحدة للإسلام، المؤسسة على أساس مفهوم الوساطة، وهو مفهوم رئيسي. تعلمنا قراءته للنص المقدس أن التوازن هو المعيار الرئيسي بعد مفهوم الوحدة الإلهية، الذي يمكن أن نعبِّر عنه بالتميز، القياس، التوازن، والصلة بين الإيمان والعقل بدون التباس والوحدة والتنوع والدوام والتطور، هنا وهناك. وقد اكتشف أننا نجد في الهيكل القرآني الدعوة المباشرة إلى التوازن والتجديد والتأمل، كما يحدد المخاطر التي تواجه المجتمعات الإسلامية؛ فالأول يتمثل في عزل

النفس عن العالم، والثاني يتمثل في أن تضيع فيه.

وهو يسلط الضوء على مفاهيم مهمة للرسالة القرآنية: "ذكرت كلمة المصير أو المستقبل ثمانية وعشرين مرة في الكتاب حتى يتم استخدام كلمة مصير، حول هذا الموضوع ... الطوْر، المرحلة، والفترة." ويشير إلى أن القرآن الكريم كان أول من أعطى هذه المفاهيم فهماً كاملاً، ومن ثمَّ ظهرت فكرة التطور.

أكد بيرك معارضًا في ذلك الفكرة التي تتحدث عن القضاء والقدر عند المسلمين: "الوحي هو جعل الرجل مسؤولاً على الأرض إلى "حين،" ويترتب عليه خلال هذه المدة ممارسة هذه المسؤولية، للحصول على الأجر الأبدي."

كما يصر: "أن الوحي كان حول إعادة تنشيط الطبيعة البشرية". ولأنها مخلصة لمعنى الرسالة القرآنية، وفكر أسياد الإسلام الأكثر أصالة، يرى بيرك أن: "الوحي، يدعو إلى الحياة بالتحديد؛ لأنه يشير إلى قيم ثابتة. ولهذا السبب أيضًا، فإنه يستند إلى منطق الرجل، ويجعله في وضع المسؤولية ... كما أن للوحي يدًا في تحول الناس عبر الزمن، وفي عملهم أيضًا".

لاحظ بيرك أن التفكير بالعقل قد ذكر ما يقرب خمسين مرة في القرآن الكريم، مثل هذه الآية الصريحة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مصراً في ذلك: "إنها ليست بمسألة بديهية أو كامنة، ولكن فعالة مستعينة في ذلك عقلانية الإنسان... لإسلام التقدم، إسلام "التقدم"، لماذا؟ يقول بيرك: لأن الإسلام يتميز بذلك الطابع المنفتح على الزمن".

كتب لي ذات يوم هذه العبارات حول موضوع إسلام التقدم، إسلام الأبد، إسلام الوسط، على الطريقة المحمدية، التي تواجه الظلامية، المحافظة، الأصولية: "إن ما يسمى بالإسلامية (على عكس الإسلام تمامًا) ينطلق من مبادئ غير مبررة للوصول إلى استنتاجات خاطئة. إنها مغالطة الأصالة ... إذا لم نعد قادرين على الحفاظ على الأصالة طالما أننا خصصناها للماضي، فليس هناك ما يمنع بناء أصالة تكون مستقبلية، لا شيء يمنع ذلك، بل هذا مطلوب".

كان يدعونا إلى التفكير والانفتاح والتقدم والأمانة والإخلاص للرسالة القرآنية. أثبت بيرك للأصوليين، وأولئك الذين يعادون الإسلام مدعمًا أقواله بآيات قرآنية وحقائق تاريخية، أن الإسلام دنيوي، ومنفتح وكامل، وشامل وثيوقراطي.

الالتزام الأخلاقي والسياسي

كان يحب معنى سياسة التضامن والثقافة والكرامة التي تتحلى بها شعوب الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، لاسيما مسقط رأسه، الذي عرفه في وقت ما كوجهة الحركات التحررية وملتقى الحوار بين الشمال والجنوب. لقد أظهر بيرك أن أرض المغرب هي أرض مضيافة، لها الحق في التنمية، ورأى أنه في هذا المستوى طرحت مسألة تحسين العلاقات بين الدولة والمجتمع وبين المحلي والعالمي.

لقد أثبت أن الحداثة في البلدان الإسلامية لا يمكن بناؤها ضد التقليد، وحثنا على الانفتاح على العالم وعلى الفخر بانتمائنا إلى البحر الأبيض المتوسط، دون التقليل من جذورنا المتعددة. كما دعانا إلى الربط بين الأصل والمستقبل، وبين الوحدة والتنوع. كان يقول "لقد تغير الاستعمار والمستعمَر والمستعمِر".

ومن هذا المنطلق، وبدون نسبية، كان بيرك يطلب من مجتمعات الضفة الجنوبية للبحر المتوسط تحمُّل نصيبها من الطابع الفرنسي والطابع الأوروبي، وبنفس القدر، كان يطالب مجتمعات الضفة الشمالية بتحمل نصيبها من الإسلام والعروبة-البربرية. إن عالميْنا مرتبطان ومتداخلان ومتشابكان.

لا توجد هوية متجانسة أو ثابتة. يجب الربط والتنسيق بين الوحدة والتنوع، وبين القديم والجديد. يجب أن تسود الأخوة والصداقة والتعاون بيننا.

تحدث بيرك عن المسلمين، وتحدث مع المسلمين، كما لم يفعله أحد قبله. لم يسع أبدًا للهروب من ضرورة النقد الحاد والصريح، وتسليط الضوء على البيانات الأساسية للإسلام: "التقدم كلي أو ليس كذلك" و "لا يوجد سلام بدون عدالة".

من دون التدخل في النزاعات بين الدول العربية، وجد نفسه منخرطاً في النقاشات الداخلية للعالم الإسلامي: "ترجمتي للقرآن تجعلني، أنا كاثوليكي الديانة، أدخل اليوم في نقاش بين إسلام التنوير وإسلام الظلامية. لذلك كان لي -ولا يزال- الامتياز -والمخاطرة- لدراسة هذه المجتمعات من الداخل ".

كان يرى أن مستقبل العالم يعتمد على قدرة شعوب الضفتين في تحقيق الوحدة. لم يدافع عن أي توفيق غير مجد. كان الأمر يتعلق ببعض التنازلات المتبادلة لبناء علاقات قابلة للبقاء. لذلك، كان من الضروري التوصل إلى اتفاق بشأن الأساسيات، ولكن "ما هو ضروري، في الواقع،

بالنسبة للأشخاص الذين يسودهم التعلق بالأصالة؟"

نسج بينه وبين الديانة التوحيدية الثالثة خيوطًا واحدة من أجمل القصص الفكرية في القرن العشرين، وهي قصة حقيقية، شارك فيها بعلمه كمفكر مستشرق، وبحماسته كخبير في علوم الإسلام، وبوضوحه كعالم اجتماع. لقد ساهم جاك بيرك في كتابة تاريخ الإسلام الحديث بحروف من ذهب.

كان يدافع عن الحق في الاختلاف، داعياً إلى حضارة مشتركة جديدة، مستنكرًا في ذلك التطرف والتعصب الإثني، والرغبة في الهيمنة؛ حيث يقول: "هناك استحالة تاريخية لضمان الهيمنة الكلية لكل من القوة والتفوق التكنولوجي"، تاركًا لغيره، "التسهيلات الباطلة والأحكام القيمية".

قدم بيرك الكثير لتاريخ الإسلام والحوار متعدد الأشكال، الذي أراد خلقه بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، حيث كتب بيرك في "الإسلام في زمن العالم": "يجب أن تكون الشعوب قادرة على تأكيد نفسها كما تشعر وتريد، وشعوب الإسلام مثل الشعوب الأخرى".

لقد عارض التعصب والدعاية لصدام الحضارات. وأعرب عن أسفه لأن جزءاً من العالم الإسلامي يغري

بالانسحاب، وأن الغرب يتجاهل الإسلام: "إن الفكرة التي وضعها الغرب عن الإسلام، نادرًا ما تسمح له بالحوار". دعونا نحافظ على استمرارية فكره، التي تزال سارية إلى حد اليوم، من خلال التمييز والمعرفة المتبادلة، والتعلق بالتفتح، والخط الوسط والتعايش. نحن بحاجة إلى اكتشاف أفكاره ونضالاته عن كثب.

قراءة بيرك من جديد

من الضروري، في نظر بيرك، العودة إلى مراجع موثوقة وعادلة وموضوعية قادرة على تزويدنا بتعليمات عن الديانة التوحيدية الثالثة، وعلى ما توحي به في عصر الحداثة، لحياة الناس والمجتمعات.

لن يخفي نهج بيرك الخلافات، أو الاختلافات، أو العداءات الأساسية التي تميز، أو تفرق بين الإسلام والغرب. للخروج من الحلقة المفرغة والعقيمة والذاتية والخطرة من الاتهامات والمخاوف والجهل، إلى العمل من أجل التعايش السلمي والمثمر في عالم يسوده السلام والوضوح، ينبغي أولاً وقبل كل شيء إدراك كل ما يستبعد التشويه الأعمى، أو الاعتذار لكلا الجانبين، حيث تثير التطورات في السنوات الأخيرة مخاوف من أننا قد نشهد

حوارًا للصم، وتراجعًا للتعارف المتبادل، وعودة ممارسات الاستبعاد، والرفض، ونبذ الآخر المختلف.

وأشار بيرك إلى حقيقة أنه بعد سقوط جدار برلين في نوفمبر 1989، استغل آيديولوجو النظام الدولي الجديد، في نظرياتهم حول نظام الاستنكار، ونهاية التاريخ وصدام الحضارات، مفهوم التفرد، والتأخير، والتناقضات في العالم الإسلامي، وفي الوقت نفسه العجز الديمقراطي لمجتمعات الإسلام، وظهور الأصولية -حتى ولو بقيت تشمل الأقلية- ومقاومة الظلم -مثل ذاك الذي عانى منه الفلسطينيون- من أجل خلق صورة "العدو الجديد" في محاولة منهم لترسيخ هيمنتهم.

ويشرح جاك بيرك، وهو من أعظم العلماء الذين درسوا الإسلام في القرن العشرين، أنه يجب على المرء تحليل الحقائق إذا أراد التغلب على المعضلات الزائفة، والمنطق السلبي للمواجهة، والعنف. هناك اختلافات وتباعد وخلافات بين الإسلام والغرب، إنها بالنسبة لبيرك قضية العقل، قاسمنا المشترك، لذا فهي توجب علينا العمل للتغلب عليها بغرض تحقيق إنسانية سلمية واحدة؛ لأن القيم التي توحِّدنا هي في الواقع أقوى بكثير مما يفصل بيننا؛ فقد أثبت بيرك أنه لا يوجد شيء في القرآن يعارض

المثل الأعلى الديمقراطي، والعالمية واستقلالية الفردانية الحديثة.

ما يشكل مشكلة - بالنسبة لجميع الشعوب، حتى لو كان العالم الإسلامي يمثل آخر مقاوم- هي التجاوزات والانحرافات، ومظالم العلم والعلمانية والرأسمالية المتوحشة. علاوة على ذلك، فإن هذه المقاومة لا تتخذ دائمًا مسارات جيدة، بحيث إنها تأخذ في بعض الأحيان أساليب رجعية وعكسية وظلامية، فقد أوصى بيرك بأخذ الأمور بعين الاعتبار.

الأصالة والحداثة

إذا كان هناك زوج من المصطلحات التي تعكس نهج ودعوة وفكر جاك بيرك، فهما الحداثة والأصالة. إن الحداثة هي الحاجة إلى استخلاص نتائج الثورة السياسية والعلمية والتكنولوجية، والابتعاد عن تجاوزاتها.

والأصالة هي الحاجة لقيادة التحولات الضرورية في منطق ثقافة معينة، مع الابتعاد عن الماضوية. لم يفشل أبدًا خلال نصف قرن تقريبًا من الدراسات حول المجتمعات العربية والعالم الإسلامي، في تلبية الشرط المزدوج لهذا الموقف: الموضوعية تجاه التحولات التاريخية، والالتزام

الكامل لأخذ قيم الروح بعين الاعتبار.

لقد شارك بشجاعة ووضوح في المناظرات العظيمة التي هي محور العلاقات بين الغرب والإسلام، انطلاقاً من الأصالة والحداثة. إذ تطور فكره بمرور الوقت، فإنه لم ينكر أبداً مبادئه استناداً إلى الأولوية المعطاة للانفتاح، وإلى "العقل المعقول"، وهي التي تستمع إلى اقتراحات المشاعر والحياة وإلى التقدم، ليس فقط من خلال الحفاظ على الجدلية المفتوحة بين العقلانية والغموض، والطبيعة والثقافة، ولكن مع الرغبة في التعبير عنها وفقًا لتطور الوضعيات، ووفقًا للرؤية المناسبة لكل ثقافة.

هكذا تطرق إلى الإسلام، الذي رآه يواجه تناقضًا ثلاثيًا بين الخصوصية والشمولية، وبين الديناميكيات الجزئية والديناميكيات العالمية، وبين زخم القوى الأساسية والنقد العقلاني. حيث كتب: "في نهاية المطاف، تشكل تحليل هذه العلاقات الثلاثة، بعيدًا عن مشاحنات الناس، معتقدات وأيديولوجيات، مقياس النجاح التاريخي الحقيقي".[1]

---

(1) Les Arabes, Paris, éd. Sindbad, 1997, p.91.

تكلم جاك بيرك عن العرب، وتحدث إلى العرب، كما لم يفعله أحد قبله. يحترم الآخر والآخرين، لم يسعَ قط للهروب من ضرورات النقد الصريح والصادق: "فمعظم التقلبات التي عانى منها العالم العربي منذ عهد التحرر .. قد تفسر بفشل مؤقت من جانب الدول العربية في التعامل بشكل مناسب مع العلاقات الثلاثة".[1]

في "اللغات العربية في الوقت الحاضر"[2]، يقودنا إلى مصادر الهوية العربية، تلك التي تغذي الخيال والذاكرة والثقافة: الكلمة القرآنية أولاً، كلمة الشعراء ثانيًا. وبالفعل، يولي المجتمع العربي أهمية خاصة لرموز اللغة، وللقول، والتعبير، والسعي الدائم للتقدم دون أن يفقد أيًا من مظاهره، وأسسه، وروحه. فهم جاك بيرك مبكرًا هذه الحقيقة الأساسية، وأنها ستكون ضرورية في جميع الظروف، حيث كتب: "التقدم كلي أو ليس كذلك".[3]

في قريته في لاندز، حيث استقبلني آخر مرة في صيف عام 1994، شرفني جاك بيرك بإبلاغي بالتصحيحات والتعديلات التي أجراها على مؤلفه "ترجمة تجريبية للقرآن"

(1) Les Arabes, Paris, éd. Sindbad, 1997, p.91.
(2) Gallimard, Paris, 1974.
(3) Langages arabes du présent, Gallimard, Paris, 1974, p.189.

بعد نشره لأول مرة في عام 1991. هي نظرة في آن واحد حية وعميقة، ثم قال ببعض الجدية: "لقد غيرت علاقتي بالإسلام حياتي."

وفي أحد أعماله الرئيسية، "العرب"، التي تتعامل مع تطور المجتمع العربي، وأهالي البلدة والبدو، نطق بصرخة نابغة من القلب والعقل: "يبقى هذا البدو الذي انتقد بشدة جميلا، فقد ساهم بالتأكيد في بقاء البشرية والأمل". وبعد ذلك، وخلال حديثنا، أضاف بابتسامة عريضة ليست مجردة من الفخر، أن العديد من المسلمين حول العالم، وخاصةً منذ ترجمته للقرآن، تساءلوا عما إذا كان جاك بيرك قد اعتنق الديانة التوحيدية الثالثة. أعطاني الجواب. كان واضحًا ودقيقًا، غير أنني وجدته غامضًا بعض الشيء. هذا الموضوع الشخصي والحميمي الذي لم أتطرق إليه أبداً، قد تأثرت به بشكل تلقائي دون أدنى تلميح مني. وعلى الرغم من قربنا الفكري، وتقاربنا العميق في وجهات النظر، وصداقتنا القوية منذ عشرين عامًا، ما تجرأت أبداً. بدا لي أن علاقته بالإسلام قد تجاوزت مستوى الإيمان، وأنها مرتبطة بما هو الأكثر سرية في أعماقه، أننا لمسنا هنا سر فهمه للعالم، والشعور العالمي الذي شعر به، والمشاركة

التي أجراها مع أشخاص مختلفين عنه. هذا يعني أنني كنت منتبهًا جدًا لما كان سيقوله لي.

أخبرني في البداية أنه كان ينوي أن يكتب في شكل رسالة إخبارية مشاعره الشخصية فيما يتعلق بكل هذه المسائل، وأنه كان ليعهد إلى موثق ويسلمه هذه الرسالة بحيث يتم الكشف عن محتواها بعد مرور خمسين عامًا عن وفاته. ثم أخبرني أنه كان من الواضح في نظره أن القرآن كان إلهامًا إلهيًا، وأنه لم يكن هناك ذرة شك في هذه القضية، وأنه رأى في القرآن تدخلاً من المطلق في زمن الناس، وأنه يعتقد أن النبي محمدًا كان مبعوثًا يجمع بين صفتين؛ هما النبي والرسول بمعنى "الكتاب المقدس".

كان لديه احترام كبير للنبي العربي. لقد صدم بشدة وجعل الجميع يعلم بصدمته عندما قيل عن النبي وعائلته بخفة وفحش وسوء النية، في رواية استفزازية تشهيرية تحمل خوفاً وهوسًا من الإسلام، ألفها كاتب ذو أصول إنجليزية-هندية.

مثل هذا الغضب كان لا يطاق لجاك بيرك، مثل الظلم والعنف الذي لطالما ندد بهما. ثم خلص بالقول إننا، نحن العرب، نولي الإخلاص مكانة عالية، تعبيرًا عن الأصالة.

وهو أيضًا، لم يكن لينكر أصوله المسيحية، حتى لو كانت مسائل الكريستولوجيا تسبب له مشكلة، وكذلك بعض ممارسات الكنيسة. وأعرب عن اعتقاده أنه في أي حال، فإن الصلة بين المصطفين من آدم إلى النبي ومن إبراهيم إلى يسوع، المسيح، هو أقوى بكثير من الخلافات بين التقاليد. صحيح أن الباقي هو سر النفس، ومصير كل واحد فرد، ويخضع لإرادة الله، خالق البشرية واحدة وجمعاء.

أصر بيرك على أن يقرأ على قبره خلال جنازته الكاثوليكية، سورة الفاتحة. وقد تم ذلك بحضور السلطات الدينية المسيحية والإسلامية. كم هو موقف مسكوني جميل!

كان أسلوب حياته هو الأندلس: فقد كان دائماً يحلم بوجود فرقة إسلامية متوسطية جديدة. واعتقد أن مستقبل العالم يعتمد إلى حد كبير على قدرة الشعوب من الجانبين على التجميع.

كان عمل جاك بيرك مبنيًا على الانفتاح، وشغف التفاهم، والرغبة في المساعدة على إرساء السلام والتقدم. إن تذكُّر المرء مسار رحلته ومواقفه وأفكاره وكفاحه سيكون أقوى في مواجهة التحديات والمخاطر والشكوك. حيث يرى بيرك أنه يمكن التغلب على الخصومات، حتى عندما

تبدو أنها تنتصر على سوء الفهم أو التحيز أو العنف. يجب على الإسلام، هذا الدين غير المعروف، أن يُبذل في حقه جهد ليدركه أتباعه المتعلمون والمنفتحون من الأكاديميين والباحثين والمثقفين، من أجل إعادة صياغة صورة تمثله بطريقة عادلة وتمكّنه من المشاركة في بناء عالم مختلف.

إن عمل التأمل، وإعادة التأويل، والنقد الموضوعي وفقاً لتطور الزمن، وهو عمل ضروري للتغلب على التناقضات والأخطار والعقبات التي تقف أمام مسعى التقدم، يتطلب إتقان كل من أدوات العقل الحديث، من أعمال أرسطو إلى يومنا هذا، وخصائص الفكر العربي في العالم الثقافي الذي هو عالمه.

فبالنسبة له، من المهم لنا جميعًا أن نفهم أن مصيرنا مرتبط، إذ علينا جميعًا بناء أفضل مستقبل أو الأقل سوءاً. هناك مؤسسات رسمية ومؤسسات المجتمع المدني تنشط لهذا الغرض، لكن منطق السوق والتناقضات لكلا الضفتين يعيق التعاون والشراكة والتبادلات المثمرة.

من نفس الوادي

قدم حياته للحوار الذي أراد تأسيسه بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط. وكانت لفتته النهائية، والرمزية للغاية،

التبرع بمكتبته ومحفوظاته إلى دار الثقافة في مسقط رأسه، فرنـدة (الجزائـــر). وقد عهد لزوجته، السيدة جوليا بيرك (Julia Berque)، للاتصال بي بهدف تحقيق هذه الرغبة، والتي تم تحقيقها بمعية السلطات الجزائرية المعنية.

من ناحيتي، التقيت جاك بيرك لأول مرة في باريس، في عام 1975، في (كوليج دو فرانس) المرموق حيث كان يدرِّس منذ عام 1956. علمت أنه كرس مساقه لعام 1973-1974 للشيخ سيدي أحمد بن يوسف، شفيع مليانة. وصفه بيرك بشيخ الشيوخ، سيد العصر المغاربي في القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري.

لمدة عشرين عامًا، من عام 1975 وحتى وافته المنية في عام 1995، كان الحوار الذي أجريته كباحث يقظ وفطن مع جاك بيرك مستمر وعميق. أعتقد أنه من النادر جداً التبادل حول مسألة العلاقة بين الإسلام والغرب. لطالما كان الحوار بين الأديان هو الجانب الآخر للرغبة في أن نكون، مسيحيين ويهود وعلمانيين وغيرهم، ملتزمين بمبدأ عدم قطع الصلة بين الإيمان والعقل والفكر والغنوصية والقيم الروحية والزمنية - مع العلم أنه لا ينبغي الخلط بينها - ومعارضة أولئك الذين يسعون إلى استخدام الدين لأغراض

سياسية. حيث يبدو لي أن الحفاظ على الصلة بين الأصالة والحداثة، وبين المنطق والمعنى هو مسعى الحياة.

في كتابه "الإسلام في زمن العالم"، قال بيرك "يجب أن تكون الشعوب قادرة على تأكيد نفسها كما تشعر وتريد، وشعوب الإسلام مثل الشعوب الأخرى." لقد كان حقًا من نفس وادي العلماء المؤسسين والمتمردين في المغرب العربي. من نفس الوادي، من خلال التزامه تجاه العرب من أجل الدفاع عن القضايا العادلة؛ بالتمجيد، أمام كل ظلم، بواجب التضامن والمقاومة والمعارضة. دون أن يكون منافيًا لمبادئه، حلل جاك بيرك وفسّر، وشارك شعوب الساحل الجنوبي حياتهم. كان يقوم بتحويل الواقع من خلال التبادل، والمشادة الصريحة أحيانًا، دون أن ينسى احترام الآخرين، أو الأمانة للموضوعية.

لقد ذكّر بقوته في التحليل وبكل قناعة، أن العرب والمسلمين قد شاركوا بشكل كامل في ظهور الغرب. كان تراث الغرب يهوديًا إسلاميًا مسيحيًا؛ كان يونانيًا عربيًا: لم يكن يهودًا مسيحيًا ويونانيًا رومانيًا فقط. لهذا السبب، لم يتوقف بيرك عن التأكيد أن مستقبل العالم يعتمد على القدرة على إعادة الحوار بين الثقافات والأديان والحضارات الواقعة

في منطقة البحر الأبيض المتوسط، التي وضعت أسس الحضارة العالمية، وركائز الطبيعة الاجتماعية والثقافية للإنسان، وبالتالي هي من تلعب دوراً رئيسياً لا غنى عنه في بنية هذا الحوار.

حتى إذا كان غالبية الناس في الشمال كما في الجنوب، لا يؤيّدون منطق المواجهة، فإن ما نلحظه اليوم مرير، بالنظر إلى عديد التلاعبات، والخلط والخطب الخبيثة التي تكتسح صوراً أخرى. من وجهة النظر هذه، فإن الوضع مثير للقلق. فالمشكلات بالنسبة لبيرك هي ذات طبيعة سياسية في المقام الأول، مما يعني أن مسألة العدالة، وقبول الآخر في اختلافه، دون أن يكون ذلك تهديدًا، تطرح نفسها بحدة. فقد تساءل كيف يمكن للبعض من أتباع ديكارت وروسو ومبادئ الثورة الفرنسية أن يرفضوا الآخر، المسلم، الحق في البقاء مرتبط بالمعنى الروحي للحياة والموت؟ كيف فقد بعض تلاميذ عمر بن الخطاب وابن العربي وابن رشد والكندي الإحساس بالانفتاح والابتكار والحوار؟

إن المشكلة الرئيسية في نظر الغرب عندما يتعلق الأمر بالإسلام هي مسألة الفصل الواضح والبيّن والدقيق بين الدين والسياسة. بالنسبة لبيرك، ليس من الصعب الإجابة

عن هذا السؤال من خلال الجدال القائم على الأدلة. فقد صرح أنه بقي يعمل على القضايا المشتركة والمسائل والتحديات المشتركة التي تؤثر على العالم بأسره؛ إنه لَجُهد حيوي، لأنه لا يمكن لأي ثقافة أو أي منهج مجابهة الأمر بانفراد. ومن المؤكد أنه من الواجب إعادة النظر في تعليم العلوم الاجتماعية والإنسانية والفلسفة والدين بصدد تعزيزها وتوحيدها وترابطها.

كان بيرك حريصاً على الحد من الجهل المتبادل، الذي يعد البلاء الرئيسي. في الوقت نفسه، من أجل مواجهة هذه المشكلات المعقدة والواسعة، نصح بانتهاج الدراسات متعددة التخصصات. حيث أكد أن محتوى البرامج التعليمية يستحق التحديث بشكل دوري، وهذا ما يدركه المدرسون، غير أن هناك مشكلة أساسية أخرى تطرح نفسها: كيف نضع حدًا للأفكار المسبقة عن الآخر، وعن الحقائق المبنية على رؤى خاطئة عن حقيقة الآخر، وكيف نصلح أزيد من ألف عام من سوء الفهم والرؤى الطائفية ورفض الاختلاف؟

لماذا الإسلام؟

في محاضرته الختامية لمساقه في (كوليج دو فرانس) في 2 يونيو 1981، المعنون في البداية "الإسلام والبحر

الأبيض المتوسط"، ولأغراض النشر عنون بـ "الأندلسيات"، تساءل بيرك عن أسس وأهداف بحثه في المجال الاجتماعي-التاريخي للإسلام: "لماذا الإسلام، لماذا يشكل القرآن محور دراستي؟" لأن الإسلام يقدم تسمية مشتركة يتعارف عليها عدد كبير من شعوب العالم (...) إن الإسلام بالنسبة لهم كوني مصمَّم وفقًا لتطلعاتهم. لماذا الإسلام؟ لأنه منخرط في حياة المجتمع والمؤسسات، وهو الحدث بعينه. لماذا الإسلام أخيراً؟ لأننا نجده في قلب الاستعمار، ثم القضاء على الاستعمار. لأنه في نظر المؤرخ حالة بالغة الحدة من التبادل غير المتكافئ والمقاومة التي لا تنضب. (...) لا يوجد دين، ولا سيما الإسلام، يمكنه التخلص من التزامه الدنيوي (...) دون إغفال ما يربطه صراحة في عقول المؤمنين بالتنزيل (الموحى)[1].

ظل جاك بيرك يكرر أنه من الضروري بالنسبة لجميع الثقافات، وخصوصاً الديانات التوحيدية الثلاثة، التي تهدد أسسها تجاوزات الحداثة وإحياء التطرف، إعادة التفكير في العلاقة بين الإيمان والعقل، وصيغة الفرد والجمع والطبيعة

(1) Islam et Méditerranée, texte manuscrit, archives Z143, p.11, service Archives, mairie de Belfort.

والثقافة. فما الغرض من ذلك؟ تكمن الإجابة في محاولة الحفاظ على الطابع التعددي للحضارة العالمية دون التنازل عن أي شيء؛ سواء للقيم المحلية المنطوية أو لمزاعم تفوق المجتمعات الصناعية. فقد كان يدرّس أن الوصول إلى النظام العالمي هو نتيجة لنظام التباين وإعادة استخدام القواعد والقيم والأعمال: فمثل هذا النهج يحول دون التزوير والانغلاق، ويفرض النقد الذاتي والانفتاح على إنجازات بقية البشر. ولقد أثبت أنه يمكن للإسلام أن يسهم في عالم أكثر إنسانية وعدالة ومنطقًا. إنه في نظر بيرك شريك فريد من نوعه وأصيل، يمكن أن يعكر صفو اليقين كما يمكن أن يساهم في بناء ما تبقَّى بناؤه. ما عليه إلا أن يشرع في صنع ثورته الداخلية، في ضوء تسارع التغييرات التي يكون فيها راصدًا، أو على الأقل فاعلاً سلبيًا؛ إذ لا يمكنه الاستمرار في الاكتفاء بالانحطاط المتضائل بفعل بروز وإدماج التكنولوجيا والعلوم الدقيقة.

في آخر نص كتبه في مايو 1995 قبل شهر من وفاته، وفي المقدمة التي أعدها لترجمته لكتاب الأغاني[1]، يشرح جاك بيرك أن طموح هذا العمل فيما يخص الإسلام هو

---

(1) Albin Michel, Paris, 1996.

"جلب اهتمام الجمهور حول عظمة حضارة". فقد تصرف جاك بيرك حتى آخر يوم من حياته كناقل للمعنى بين العرب أنفسهم، وبين العرب وغيرهم، وبين الإسلام والعالم الغربي. فقد كان يدرك أن المرور من المقدس إلى التاريخي هو إحدى اللحظات الحاسمة لثورة المجتمعات، لكنه كان يعلم أيضًا أن الفصل بين العقل والإيمان يشكل أحد انحرافات التاريخ. ولملاحظة هذه الظاهرة لدى العرب، استخدم بيرك موارد المعرفة الجوهرية التي لا نظير لها في هذه المجتمعات وحماسة شغفه لها.

لقد كرس بيرك كتاباته التي نُشرت بين الثلاثينيات والستينيات، وصدرت في النصف الأول من حياته، من "العقود الرعوية في بني مسكين" إلى "النظم الاجتماعية في الأطلس الكبير"، ومن "العرب بين الأمس والغد" إلى "استنزاف العالم"، لدراسة العروبة من أوجهها الاجتماعية والتاريخية المختلفة، وكذلك التاريخ الاجتماعي والأنثروبولوجيا الثقافية، وعلم الاجتماع السياسي، وحتى اللغويات وعلم النفس والفلسفة للمجتمعات العربية، وقد شكلت هذه الأخيرة أدوات تحقيق وتفسير لتحليله متعدد التخصصات.

في كتابيه "المغرب العربي" و"التاريخ والمجتمع"،

عرّف بيرك واقع مجتمعاتنا بدقة؛ حيث تشكل الدقة والعمق وحداثة نظره المرجع الأساسي لأولئك الذين يرغبون في اكتشاف الآخر الذي ينتمي إلى شعوب الضفة الجنوبية في مواجهته الصعبة للعديد من التغييرات السياسية والاجتماعية والثقافية. منذ البداية، تتطرق ملحوظات جاك بيرك إلى جوهر خصوصية شعوب الضفة الجنوبية. حيث فهم بحدسه أن الكلام والنفس يميزان طريقة وجود ومعيشة هذه الشعوب؛ "إن شمال أفريقيا هي الأرض بامتياز لمن يرغب في البحث عن الذات والبحث من خلال التفسير، والتأكيد والتظاهر، والبحث عن طريق الاستيعاب والتشويه". حيث يرتبط جزء من هذه الظواهر برمزها، ويرتبط جزء من التاريخ، كمورفولوجيا الجماعات، بحياة الكلمات"[1].

وفيما يتعلق بمسألة احتجاز السلطة الاجتماعية بأشكالها التقليدية، يقول: "هناك نوع معين بارز يتمثل في التنظيم الذي وضعته الجماعة، وهي الهيئة التداولية للمجموعة. وجدنا هذا الأخير في جميع الأوقات، كالوصي على النظام الزراعي، وكالمشرع في جميع المسائل، وأخيرًا كفاعل في التاريخ، فهو الشخصية المركزية للنظام. حيث كانت له ردود أفعال على الآخرين: الأفراد والمجموعات الفرعية

(1) Maghreb, histoire et société, Duculot/SNED, 1974, p.31.

التعصيبية. فقد أثر في الدين والقانون وأحيانًا نظّمهما، وهيمن على الطبيعة والمدينة على حد سواء"[1].

إسلام التنوير

لقد نجح جاك بيرك في فهم الواقع الجامع والمتكامل لعالم الإسلام. لكنه أيضًا فتح مسارات الفكر ووجهات النظر، وإمكانيات التحليل التي يمكن أن تعزز العلاقة بين حضارتي العالم الغربي والإسلام، وبناء التكامل متعدد الثقافات. لكننا لا نستطيع أن نفهم العقلية والسلوكية وروح الشعوب العربية إذا لم نكن نعرف أولاً معنى القرآن. يقول بيرك بشكل قاطع: "حتى اليوم لا يزال القرآن بالنسبة للإسلام، وخاصة بالنسبة للإسلام العربي، نموذجه البارز، وعمومًا جسمه اللفظي. إن هذا الوجود الذي يجمع لدى الملايين من المسلمين التقليديين، المرجع المتعالي، والعاطفة الجمالية، وما قد يحدث في الحياة اليومية، ويسمح لهم، إن صح القول، التراجع عن اقتصاد السلطة التعليمية المؤسسية (...) يمكننا - بل علينا - اللجوء إلى الوثيقة الوحيدة الصالحة في القانون، وفي الواقع لجميع الأوقات وجميع بقاع الإسلام: القرآن؛ لأن الإسلام، يضيف

(1) نفس المرجع، ص.18.

بيرك، "منذ البداية، تم تعريفه على أنه علاقة الإنسان بالتنزيل. فوفقًا للإسلام، يتحدث السمو إلى الناس عن طريق كتاب: وهو القرآن، الرسالة الجوهرية"[1].

يدرك بيرك ويوضح بدقة ما يميّز "الإنسان-الإسلامي: "أراد الإسلام أن يكون منذ البداية مسؤولية في القرن، وفي الوقت نفسه التزامًا تجاه الغيب أو الغموض"[2]. بالنسبة للكائن الطبيعي، التزام فوق الأرض كوكيل، وملازم، بالنسبة للكائن الروحي، تراجع تجاه المؤقت: هذه هي الحركة الدائمة التي يجب التحكم فيها. التصرف كإنسان عاقل يعلم أن حياة الآخرة هي المصير النهائي.

يكشف جاك بيرك للقارئ أنه يوجد في التركيبة القرآنية نفسها، أكثر شكل مباشر للدعوة إلى التجديد والتفكير التأملي. ويحدد المخاطر والتحديات التي تواجه المجتمعات الإسلامية. حيث إن الخطر الأول هو عزل النفس عن العالم. والثاني، الضياع. وبالتالي، وفقًا لأخصائي عالم الإسلام، فإن كتاب "إعادة قراءة القرآن" هو

(1) L'Islam au temps du Monde, Sindbad/Actes-Sud, 2002, pp. 205-229.

(2) نفس المرجع، ص. 238

واحد من الطرق المميزة للعثور على نضارة الرسالة الأصلية، والتعلم من الأخطاء، والتطلع لغد أفضل.

إن التجديد (التنشيط، التحديث) هو قدرة الرسالة على استخدام عبارات جديدة دون تغيير معناها، حيث يستبعد هذا الاحتمال أي شيء سهل يتكرر؛ وهذا ما يعني إعادة التعريف المستمر للرسالة، وإعادة التفسير، وبالتالي تحسن الفكر التفسيري. وفي هذا السياق، يقدم بيرك مجال تحليله وملحوظاته ودراسته: "إن ما نريد السؤال عنه هو إسلام الجماهير، في حوار مع علمائهم"[1]. وهو نفسه إسلام التنوير، الذي ينبثق من أعماق الناس، ويشع في فكر بيرك، والذي يحافظ عليه باستمرار عن طريق الاتصال مع القاعدة والأصول.

في رسالة وجهها لي في 29 ديسمبر 1988، رداً على إحدى مقالاتي بعنوان "إسلام التقدم"، كتب لي: "ما يسمى بالإسلامي (مقابل الإسلام) يبدأ بمقدمات غير مبررة للوصول إلى استنتاجات خاطئة، إنها سفسطة الأصالة، ولا يمكن مطالبة العصر الحديث بإطاعة نظام تم شطبه من التاريخ قبل أوانه. إنه تناقض لا يمكن التغلب عليه، وهو ما

---

(1) نفس المرجع، ص. 262

أدى إلى المصائب التي عاشتها إيران، والفشل، على المدى القريب أو المتوسط، في جميع الحركات من هذا النوع ".

ماذا تعني الإسلاموية بالنسبة لبيرك؟ انحراف، بدعة، معاداة للإسلام، باختصار تشويه الحداثة. كانت الإسلاموية ضد الإسلام عنوان أحد مقالاته الأخيرة. على عكس الخلط الذي يتم تقديمه في كثير من الأحيان، فإن الإسلاموية هي بالفعل عدو الإسلام. إنها تتناقض مع القرآن، مع أفعال وكلمات النبي، مع تاريخ الشعوب المسلمة. فقد أدرك أن الإرهاب والإسلام ليسا نابعيْن من القرآن، فهو يدافع عن فكرة أنه لا وجود لأي مرض في الإسلام، بل هناك أمراض في بعض أولئك الذين يدّعون أنهم مسلمون، ويتعنتون في رفضهم لمسيرة الزمن، وفي رفضهم للآخر المختلف وللعالمية. يضيف بيرك أنه بالنسبة لهم: "لا يمكن للمرء في الوقت ذاته أن يسمح لنفسه التأصل بـ"المبادئ"، " والقواعد"، و"الجذور" وإهمال تحديث إمكاناتها"[1].

كشف المستشرق والمفكر في القضايا الإسلامية، ورفيق الشعوب العربية التي كان يفهمها ويحترمها ويحبها،

(1) Le Monde diplomatique, avril 1990.

على ضوء قراءته للقرآن، جانبًا رئيسيًّا من القرآن: "تحدي الحقيقة الإنسانية العميقة[1]". إن محاورة هذه الرسالة، هذا الصوت الذي يخاطبنا، قد يساعدنا، كما قال جاك بيرك، على مجابهة مسألة "أهمية الرجل والعالم" من عدمها. في إعادة قراءة القرآن، يحدد بيرك بوضوح منهج مقاربته، استنادًا إلى التحليل بين النقد الموضوعي والإخلاص والاحترام الناتج عن نص مختلف عن النصوص الأخرى: "سوف أتطرق إليه بالعاطفة التي تتعلق بالنص الذي نحاول استيعابه من خلال تحديد الهوية، وإن اختيرت، كونها تطمح إلى الصدق والالتزام. (...) لا يمكن لإعادة التفسير تجاهل طبيعة جلالة هذا النص (...) هذا النص الأساسي الذي يفرض الاحترام ويشعّ السلطة، ولن أتطرق إليه من موقف الإيمان، بل من موقف البحث والموضوعية النقدية"[2].

لا يمكن التعبير بشكل أكثر دقة عن صحة المقاربة وعمق الفهم وصرامة المنهج، حيث اكتشف بيرك من البداية الصعوبة التي تطرح نفسها لدى كل أجنبي: "يشعر أولئك الذين يتناولون هذا النص بدون تحضير، بالإرهاق

(1) Relire le Coran, ed. Albin Michel, Paris, p.20

(2) نفس المرجع، ص. 20

من كثرة وفرته والفوضى السطحية، حيث يتحدث الكثير من الغربيين عن عدم الترابط"[1]. وسارع إلى إضافة: "إذا قمنا بتعميق الفحص، سنراجع هذه الانطباعات السطحية. (...) فالتشتت المفترض مرتبط بوحدة المجموعة. (...) لذلك، فإن الوحدة تعبر عن نفسها في التنوع، أو يُشرح التنوع في الوحدة، (هذا ما) يمثل الميزة الأساسية للشكل والمضمون. (...) حيث يمكن تلخيص القرآن بكلمة واحدة، وهي وحدة الإله"[2].

فقد مسّ جاك بيرك جوهر الإسلام، حيث وصل إلى تحليل جانب رئيسي منه، عندما أكّد أن محتوى تفسيره يعزز ما تقترحه العبارة: وجود نظام، ومنطق يسميه التزامن، يشكّله التداخل ولا نتحكم فيه.

كما اكتشف أنه يتم ترتيب المحتوى وفقًا لسلسلتين من الأبعاد، فيسمي البعد الأول الاستمرار، والبعد الثاني الظرف. حيث يُعنى الأول بالإيمان بالآخرة، والجنّة وإلى ما هو أساسي، ويعني الثاني بالمسائل التاريخية، والظرفية، والمحتملة. حيث تحتوي هذه الأبعاد على نقاط تقاطع تُظهر أنها مميّزة ومتداخلة في آن واحد.

---

(1) نفس المرجع، ص. 19
(2) نفس المرجع، ص. 20

ويبرهن أن حياة الآخرة بالنسبة للإسلام أفضل من الحياة الدنيا، بما أنها قائمة على الدوام، وليست سريعة الزوال، وأن هناك قضية رئيسية تبقى تطرح نفسها في الدنيا: إذ يعتمد مستقبل الإنسان في الآخرة على شرط التزامه، ومواجهته، واختباره. فالطريقة العلمية لجاك بيرك تفسح المجال واسعًا لفهم الإسلام، غير أنه يستبعد "مزاعم إدراك سر تشكيل النص".

أمام النص، هناك صوت يخاطبنا، يتسبب انسجامه وكماله وشفافيته في تحويل القلوب، وبنوع من التوافق اللانهائي، يهزّ روح المؤمنين؛ فجاك بيرك يدافع باحترام عن عالمية الصدق والجمال والعدل. وعلى حد قول بول ريكور (Paul Ricœur)، من أجل أن "يسكن المرء في عالم الآخر" المختلف، من الضروري مضاعفة الدراسات متعددة الاختصاصات.

يقول بيرك مركزًا على ما هو أساسي: "ربما يكون الإسلام أكثر الأنظمة الدينية التي تهتم بشكل ثابت بسد ثغرة الكهف المحفور في الوجود ووجدان الرجل المعاصر"[(1)]. وبعبارة أخرى، فإن الصراع بين تجاوزات الحداثة وقيم

(1) L’Islam au temps du monde, ed. Actes Sud, Paris, 2002, p. 239

الروح يعطل توازن الحياة ويزعزع الطبيعة البشرية. حيث يرى الإسلام الإنسان "ككل ويرى نفسه كمقاربة عالمية وسيادية تجاه هذا الكل". إن الإسلام يدَّعي في نفس الوقت السعي العقلاني والطريقة الصوفية والحياة الطبيعية والشعور الروحي للحياة والموت. فإذا تعلق الأمر - بحسب تعبير بيرك- فيما يخص المقاومة أو الانشقاق الذي تجبره تجاوزات الحداثة ومنطق السوق، "إعادة نشر مجموعة من الإمكانات" كسرها التاريخ التعيس بين الأبعاد المختلفة للإنسان وبين المنطق والمعنى، فإنه يمكن لأوروبا وللعالم الإسلامي بقيادة المغرب العربي وفرنسا اليوم، أن يساعدوا في إعادة الحوار بين الحضارات.

يعلم جاك بيرك أن الإسلام ينوي بشكل شرعي أن يحكم "الدين والدنيا"، الذي يربط بين الدين والحياة، والمعنى والمنطق بشكل طبيعي. في حين أن العقل الغربي يفصل، دون أمل في الارتباط أو التماسك، بين هذه الأبعاد المتميزة والمتكاملة، في المقابل، لا يتخلى إسلام التنوير عن البحث عن الرابط. باختصار، فإن الرجل الإسلامي يفترض التعالي والطبيعة والمجتمع معًا، وبالتالي يمكنه أن يندفع نحو أهداف الحياة الدنيا والآخرة من دون أن يتخلى عن قواعده. لكن للأسف! بينما يتعلق الأمر بالكائن

والإبداع والسلام والتقدم، فإن المحاولات التي شهدناها منذ قرن من الزمن، هي أحيانًا عقيمة، عفا عليها الزمن، وفي بعض الأحيان الأخرى عنيفة. لم نسمع لنصيحة جاك بيرك بما فيه الكفاية: "إذا لم نعد قادرين على الحفاظ على الأصالة، طالما أننا خصصناها للماضي، فليس هناك ما يمنع بناء أصالة تكون مستقبلية، لا شيء يمنع ذلك، بل هذا مطلوب".[1] لذلك يجب أن نوائم أنفسنا بالتقدم ودمج وإدراج وموافقة قيم الحداثة القابلة للتطبيق: "ففي نهاية المطاف، كل حضارة عظيمة ليست سوى نظام من الاختلافات وإعادة الاستخدام". لكن علينا الاعتراف بأن الحوار بين الإسلام والغرب قد انكسر، فلماذا يا ترى؟ يجيب بيرك: لأن "الفكرة التي وضعها الغرب عن الإسلام، نادرًا ما تسمح له بالحوار".

إن كان الإسلام لا يريد أن يفصل، الأبعاد الأساسية للحياة والفكر أو يعارضها، ولا تلك المتعلقة بالمنطق العلمي العقلاني، والرياضي، والفلسفي، والمعنى الديني، حتى وإن كان يميزه، فهنا يكمن الفرق بينه وبين الغرب. يشير بيرك أنه في بعض الأحيان، وبشكل خاطئ، يتحول رفض الفصل هذا أو معارضة هذه الأبعاد إلى حدوث إرباك وانغلاق.

(1) نفس المرجع، ص. 217

فإذا كانت المعارضة بين هذه المستويات الأساسية للوجود من ناحية، تؤدي إلى التجريد من الإنسانية، بسبب تهميش قيم الروح، وثقل العلمانية واللائكية والرأسمالية، فمن ناحية أخرى، تؤدي حيرتهم إلى الشمولية والظلامية. يجب أن يكون المسلم، الذي يعتبر كون النبي نموذجَه بامتياز، في نفس الوقت كائنًا يتشكل من الطبيعة والعقل والروحانية. يعرّف القرآن هذه العقيدة على أنها: "خط الوسط"، الطريق الوسطي، المجتمع الوسيط: "يقول الرسول، اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً".

إن المستويات الثلاثة الأساسية لحالة الإنسان، وهي: الطبيعة والعقل والدين، كما حددها الإسلام، تعني العقل والفطرة كطبيعة بشرية، والدين في علاقة الإنسان مع الغموض، وتتطابق تمامًا مع المحاور الثلاثة الرئيسية ومع المصالح الرئيسية الثلاثة لجاك بيرك. فهو يسلط عليها الضوء، بوصفها مفاهيم وفي علاقاتها المتعددة؛ كما يوضح الموارد التي تقدمها للأجيال الحالية وللأجيال القادمة لمواجهة التحديات والتهديدات والتجاوزات، وخاصة مخاطر الانغلاق والتفكك والإقصاء. إن فكره يقوِّض عجرفة أولئك الذين يدَّعون أنهم يعارضون تطور الطبيعة البشرية، ويتظاهرون

باحتقار العلاقة بين محاور الحياة المختلفة: "فالشيء الأساسي هو أنه لا يمكن لرسالة ميتافيزيقية أن ترفض المعنى الحالي للطبيعة، ولا ترافق ما هو طبيعي. فإن التبادل بين الارتجاف أمام الغموض والمساءلة الإلهية، وبين الوصف والإيمان بالآخرة، دائم، بل يومي"[1].

وفي هذا المنحى، وعلى عكس معظم المستشرقين الذين يرفضون فرضية الوحي القرآني، فإن جاك بيرك دون التمسك الإيماني بالدين الإسلامي، يأخذ في الاعتبار هذا المسند الديني للإسلام، وبالتالي يحترم ما يقوله القرآن الكريم ذاته: "من يوحي هو الله، وما الرسول إلا مُؤْذِن (ناطق) (...) حيث تتعلق [الرسالة] بالمتلقي، وهو الإنسان، الذي يجب تحذيره وتغييره"[2]. وهذا يعني، بالنسبة لبيرك أنه "إذا كان المجتمع المسلم يستمد من القرآن المعيار الأكثر استدامة من معاييره، فإن القرآن يتطلب توفر المجتمع، ليس فقط لتحقيق الحياة وبالتالي تحقيق هدفه، بل ليظل مخلصًا لنموذجه الأصلي"[3].

يستدعي القرآن البشرية لتحقيق جوهره الخاص

(1) نفس المرجع، ص. 43
(2) نفس المرجع، ص. 43
(3) نفس المرجع، ص. 47

المتعلق بالترابط والانسجام والتكامل بين الأبعاد الثلاثة الأساسية لهذه الطبيعة البشرية: الطبيعي والروحي والعقلاني. فإذا تم تهميش أو بتر أو تشويه بُعد واحد أو أكثر من هذه الأبعاد، فإنه سيتم إلحاق الضرر بالطبيعة البشرية نفسها. وهذا هو ما بدأ اكتشافه في الشمال، وكذلك في الجنوب.

ففي كل من الغرب وأرض الإسلام، اعتمدت أسس الحياة على المعايير والمراجع وعقيدة التوحيد. وعلى المستوى العالمي، أحدثت انحرافات الحداثة، تحت تأثير شخصيات العلمانية واللائكية والرأسمالية، ثورة وحولت جذريًا ظروف الحياة المتعارف عليها بمعاييرها وحدودها وتقدمها منذ آلاف السنين.

وداخليًّا، في العالم العربي، دعم انجراف التقاليد، والماضوية، وبروز ظواهر غريبة عن الإسلام؛ مثل العنف الأعمى الذي تضاعفه العولمة إلى ما لا نهاية، والذي يفاقمه قانون الأقوى، وتفاقم الممارسات الدينية والاجتماعية السلفية وغير المتسامحة، التي تعارض الانفتاح والحوار في الحياة، فكرة أنه "عدو جديد" ينتمي إلى "محور الشر". هذا، بالطبع، خطأ وانحراف، وأقصى نكسات الأقلية، وقد توقع جاك بيرك فشله الحتمي. أولاً، لسبب بسيط، هو أن أولئك الذين يعارضون مسيرة الزمن، وطبيعة

الأشياء ومنطق العقل يدينون أنفسهم. ثم، لأنهم في تناقض في الرسالة والروح معًا، ومع المراجع الأساسية، والقرآن والأحاديث النبوية. إلا أن وراء الممارسات المتطرفة لعدد قليل من الناس الذين يتفانون في تشويههم للإسلام، ولتقويض ما يعتقدون أنهم يدافعون عنهم، ويدعمون أطروحة أولئك الذين يحتاجون إلى التخويف لترسيخ هيمنتهم، فهناك ضعف واضح في المجتمعات التي تدعي الإسلام تكمن في صعوبتها في إعادة تفسير وفهم وعيش إسلام التنوير، والإسلام الأبدي الذي يساير الزمن.

ووفقا لبيرك، يجب أن يكون كل مواطن مسلم، سواء في بلده أو في البلد المضيف، وخاصة في الغرب، مثالاً للمواطنة النموذجية؛ لأنه إذا كان اليوم موضوع أسوأ الأحكام المسبقة، فهو في الوقت نفسه يتحمل بعضاً من المسؤولية في ذلك. فعليه، أكثر من أي وقت سبق، أن يضاعف جهد احترام الذات والانفتاح على الآخر. ويعتمد مستقبل العالم في البحر الأبيض المتوسط، جزئياً على قدرة المسلم على مقاومة المظالم والتجديد والابتكار للعيش في سلام في عالم "بلا حدود".

كان بيرك يصر على أن الحركة تثبت عن طريق المشي؛ ففي كل يوم يثبت المسلمون، فردياً وجماعيًّا، أنه

من الممكن تماماً أن يعيشوا الحداثة والتقدم والشمولية دون أن يفقدوا روح المرء، حتى لو نشأت الصعوبات والتناقضات، فهذا راجع إلى غياب التفكير والتأمل الذي يجب أن يرافق معاناة الحياة.

كان بيرك يتساءل: كيف يمكن ألا يشارك ويساهم الإسلام، الذي كان ولا يزال جسراً بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب والوسيط، ومخمر الفكر اليوناني والرفيق الموجز وخاتم اليهودية والمسيحية، في استجواب مستقبل الشعوب في العالم الحديث؟ فالفجوة بين الماضي والحاضر وبين المبادئ والواقع، وبين النظرية والممارسة قد وصلت بالفعل إلى مستوى مثير للقلق.

المستقبل

إن علاقات الإسلام والغرب بالنسبة لبيرك مصنوعة من الجدال والحوار. لا شك أن هناك، على كلا الجانبين، رغبة في الاستيلاء غير المبرر على العالمية، وعالمية يسعى المتطرفون من كلا الجانبين جاهدين إلى تحديدها بشروط اختزالية انطلاقاً من خصوصيتهم. قال جاك بيرك بخصوص الأقليات المسلمة الجديدة في أوروبا، ولكن أيضاً بخصوص وجودنا المشترك في القرية العالمية: إن الأمر

يتعلق "بتضامن الوجود". وذكر بوضوح وبقوة: "إن الشاسع هو من يتحكم". إن مؤيدي المركزية الأوربية والمركزية الإثنية، يشككون في "الشاسع" بجدية. كما يدين جاك بيرك بصرامة عدم فهمهم للإسلام. لكن "الشاسع" مهدد أيضًا في بلاد الإسلام من قبل البعض، بسبب الخلط بين مستويات الحياة والفجوة المفرطة بين النظرية والممارسة. هنا أيضاً، يدين جاك بيرك الانحرافات. لقد قاده إلى التنظير، بغرض التفكير والعمل، حول المراحل المختلفة للعلاقة الفريدة والصعبة بين العالمين، الغربي والإسلامي.

وتتمثل المرحلة الأولى في العلاقات المثمرة، حيث ساهم الإسلام في ظهور وتشكيل ونهضة الغرب، وكان طرفًا كاملاً فيه وجزءاً منه. أما المرحلة الثانية فتتمثل في العلاقة المتضاربة والمجسّدة في الحروب الصليبية ونزع الطابع الإسلامي من التراث الأوروبي، والاستعمار، وإنهاء الاستعمار. وتتمثل المرحلة الثالثة في العداوات وانحسار المعرفة المتبادلة، والعمليات المتوازية والمتناقضة حول مسائل جوهرية، مثل أزمة المعنى في الغرب وأزمة التنمية في بلاد الإسلام. تتقاطع وتتداخل هذه المستويات الثلاثة من العلاقات، التي تتمثل في الخصوبة والتناقضات والصراعات، في الزمان والمكان. بسبب التناقضات؛ مثل الجوار

والجدال، الترابط والاختلاف، الانفتاح والانغلاق، فإن التحدي الآن - في نظر بيرك - هو السعي نحو الإيجابي، والمكمل والتركيبي.

"لا توجد مجتمعات متخلّفة، بل مجتمعات ينقصها التحليل". يدعو هذا الحدس الحاسم لبيرك إلى فتح مجال الدراسات والبحوث بشأن هذه المجتمعات غير المعروفة. إن التضليل والتشويه، بل وحتى التلاعب بحقائق ووقائع وتطلعات شعوب الإسلام تتغذى على تناقضاتهم الداخلية، لكن ما يعزز ذلك هو غياب التبادلات، والوجود القليل للأكاديميين والمثقفين والباحثين الغربيين في بلاد الإسلام. لا يتعلق الأمر بالمستثمرين الاقتصاديين وحدهم، بل برجال الثقافة والفن والعلوم، الذين يجب الترحيب بهم في الضفة الجنوبية. كما أن مشكلات الضواحي والأقليات الجديدة في الغرب -تستحق بحسب بيرك- مقاربة جديدة للحد من التحامل والمخاوف ومعها الطائفية.

إن المسؤولية مشتركة، فلا يمكن طمس البعد العربي - المتوسطي لأوروبا، وبالأخص في بلدان مثل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وفهمه وعيشه على هذا النحو. وبالطريقة نفسها في المغرب العربي، يجب تحمل مسؤولية البعد الفرنسي والأوروبي، مع المساهمات الحديثة المكتسبة في

تجارب مأساة الاستعمار، وفرصة الجوار التاريخي والجغرافي. فقد قدم جاك بيرك ونشر مبكرًا الأفكار التقدمية والواقعية والسخية حول العلاقات بين العالمين. فلم يقتصر على النظرية، بل بلْور حولها مخططات وآليات وميكانيزمات عملية لتحقيق البرامج، وسعى إلى وضع معايير ومبادئ توجيهية عملية للمساعدة في دعم الأخصائيين وتنويرهم، وكذلك صناع القرارات والمواطنين. فمن الضروري اليوم تقليص اختلال التدفقات والتبادلات واللقاءات.

لا وجود لمستقبل زاهر للعالم بدون اجتماع كفاءات الضفتين. حيث إن الاستثمار في الضفة الجنوبية، بطريقة أو بأخرى، لتعزيز التنمية المتوازنة في البلدان المجاورة لجنوب أوروبا، هو بادرة عمل من أجل المصلحة العامة. فبالنسبة لبيرك، لا يمكن للعولمة ولنظام السوق أن يكونا الحل لكل المشكلات، فلا يزال من الممكن مشاركة شعوب الإسلام والبحث عن أسلوب حياة أساسه العلاقة المتوازنة بين الطبيعة والثقافة يمّكن من تحسين حالة الإنسانية وتعزيز سعادة البشر المشتركة.

لقد توفي جاك بيرك في يونيو/حزيران 1995 وهو مغمور بشعور من القلق بسبب الفظائع الجديدة في الشمال والجنوب على حد سواء، بسبب استمرار التبادل غير

المتكافئ، وبسبب الضعف الصارخ في البلدان الإسلامية في إعادة النظر في تنظيم مجتمعاتها وفقًا لما يتماشى مع الزمن، وبسبب هذا الميل إلى الانفصال والتمييز والمواجهة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، في حين أن حياته والتزاماته تتحدى الازدواجية. فقد أكد أنه "لا يزال هناك مستقبل"، وكان يدعو إلى عدم الاستسلام، مع العلم أن صيرورة البشرية تعتمد على قدرة التفكير والتصرف والانفتاح انطلاقًا من مصادر المرء وخصوصياته. لقد علّمنا أنه لا يوجد حل شامل (للمستقبل)، يستوعب الأمور ويكشفها في آن واحد"[1].

(1) نفس المرجع السابق، ص. 234.

ترجمة مقتطفات من نصوص
جاك بيرك

إعادة قراءة القرآن

سأتناوله بالعاطفة التي نليها لنص نحاول الترحيب به في ذاتنا من خلال التماثل معه، استطعنا بلوغ الصدق والالتزام، متبعين في ذلك طريقة لا علاقة لها بالحذلقة المتعجرفة التي يتميز بها الكثير من المتخصصين في هذا المجال. بحث يحاول استبدال المعرفة بالتأمل والمدونة بالتحليل. فهو إذن إعادة قراءة كما نحب أن نصفها عندنا منذ جيل مضى، بغرض أن نبين أنه بمقدور عصرنا، إذا تسلح بمكتسباته المنهجية الخاصة به، وبحساسيته الذاتية، أن يحيط مجدداً بالنصوص الكبرى التي فهمتها الأجيال السابقة على طريقتها. غير أنه لا يمكن لإعادة القراءة هذه أن تغض النظر عن السمة الجليلة لنص مثل هذا، ما أمكن لقصيدة عظيمة أن تنسى ما يمكن، من غير تفسير معكوس، أن نسميه اليوم بمصطلح فظيع يعرب عن كامل المعنى، وهو "شعرية" هذا النص.

غير أنه للأسف، ثمة تحليلات عديدة لم تقع في هذا الاعوجاج. فلن نهمل إذن النداء الصوتي للقرآن، هذا النص الذي يصعد إلينا مثل أعمدة من الأصوات منذ القرن السابع لتاريخنا الميلادي، ولا يفصله عن جيستينيان (Justinien) سوى قرن تقريبًا، وهي أصوات تنبعث مفعمة بالإيمان والسلوكيات والمعتقدات، وموجهة للملايين من البشر، وهو في أعين جميع الآخرين الذين لا ينتمون إلى هذا المعتقد، ليس أقل انضواءً تحت ما يسميه ميشليه (Michelet) العظيم بالعبارة الرائعة "إنجيل الإنسانية"، وهو إنجيل يضم كل الكتب الكبرى المؤسسة لروح العالم.

ومع ذلك، فإن هذا النص الأساسي الذي يحظى بالاحترام، والذي يشع بالقوى، لن أتناوله بالإيمان فحسب، وإنما بالبحث والموضوعية النقدية، متأسفًا في بعض الأحيان على كون هذا الأمر مشاركة مؤكدة، ولكنها مشاركة متباعدة. فهي متباعدة زمناً: فأنا رجل، مثلكم من أبناء القرن العشرين، وليس من أبناء القرن السابع، كأولئك الذين سمعوه للمرة الأولى، فمن بإمكانه أن يعيد لنا انفعالهم الأول؟

يشعر أولئك الذين يتناولون هذا النص، بدون تحضير

مسبق، بالإرهاق من كثرة وفرته وعدم انتظامه السطحي، حيث يتحدث الكثير من الغربيين عن عدم الترابط، فالخطاب ينتقل من موضوع إلى آخر، من غير تتابع ولا استنفاد. في كل مرة نجد نفس الموضوع يعيد نفسه هنا وهناك بدون اطراد مميز. وبالتالي يستحيل على المرء أن يجد نفسه في وسط نص كثيف لا تفسره عناوين السور، ولا المقاطع التي أدخلها المترجمون اعتباطيًّا، ولا التصاميم أو الفهارس الأخرى التي يزعمون أنهم يزودوننا بها. وفي الأخير، وبالرغم من جمال بعض المقاطع، فإن القراءة تخيب المرء، وفقًا لما صدر عن البعض.

ومع ذلك، إذا تمعّنا في النص، سنراجع هذه الانطباعات السطحية. بدون بلوغ الأُلفة مع النص التي يتمتع بها كثير من المؤمنين في وقت مضى، والذين كانوا يحفظونه عن ظهر قلب، ويظهرون قادرين على تعيين أي فقرة منه بالإشارة إلى كلمة أو فكرة في أي مقطع، فإن تحسُّنكم الكافي في المعرفة القرآنية سيمكنكم من بلوغ الحقيقة التالية: التشتت المفترض في معالجة المواضيع هو مرتبط بوحدة المجموع. وإن تشتت الكلمات والصور والوقائع، يقودكم إلى خطوط هي نفسها موحدة الاتجاه. فلنغامر بصورة لكي يفهمنا الآخر فهمًا أفضل، وإن كان

الثمن هو استعارة تناقض بعض الشيء الجملة السابقة، فالقرآن يجعلنا نفكر بمجسَّم كثير السطوح: إنه موحد في مجموعه، وهو أيضًا متعدد الأوجه.

هناك أنواع من النبر المختلفة التي تهيمن في القرآن: هناك نبر كيريجما أو صرخة التوحيد العظمى، وقد سبق أن تكلمت عنه، وهناك نبر القيامة، ونبر التشريع، ونبر الجدال، ونبر الوقائع، ونبر غنائية طبيعية، وهناك بطبيعة الحال نبر الأمور الأخروية، ونبر الثواب، إلى آخره.

نلحظ عند قراءة القرآن بكل سعته أن المضمون ينتظم تبعًا لسلسلتين من الأبعاد. حيث أسمي السلسلة الأولى: سلسلة البعد الدائم. والثانية: البعد الظرفي. فعن أي انتظام نتحدث؟ كما هو معلوم، يتعلق ذلك الدوام بمجموع العقائد المتصلة بعالم البعث والحساب، أي بما هو أساسي. وهو دوام يلامس فلسفة دائمة للتاريخ، فالشعوب التي ارتكبت إثمًا، والتي تلقت وحيًّا ولم تَّتبعه، تم عقابها. وهو دوام متعلق بالتناغم الكوني، ويساعد على إثبات وجود الله بشكل طبيعي. إن هذه الأبعاد الثلاثة أساسية في الخطاب القرآني، ذلك أن ثمة أبعادًا أخرى تنضوي تحت البعد الظرفي، ونسميها أيضًا الزمانية، مثلما يسميها علماء الاجتماع. فعلى

سبيل المثال هناك الإشارة إلى أخبار العصر: فمنها وصف معركة بــدر (624) في المقطع الذي قرأته سالفًا. فمثلاً تلك الإشارات الخفية والحية والظاهرة في الوقت نفسه، إلى سيرة الرسول ذاته، وهي إشارات عديدة. وأكثر من ذلك، فالمقاطع تجسد ظاهرية الوحي. والأمر كذلك بالنسبة للعديد من العلاقات الخلافية بين الرسول ومعارضيه، المعلن عنهم أو الخاضعين. والدليل على ذلك أن خطاب هؤلاء ينعكس حرفيًّا في القرآن، بل لأن بعض أقوالهم قد أعيد أخذه فيه بقصد السخرية. ولا يمكن لكل هذا أن يعاد ذكره إلا في حالة الظرف. فكيف يمكن للمرء ألا يرى مشاركة بُعدي الدائم والظرفي عمومًا، في هذه التقاطعات المتداخلة؟ ثمة عدد قليل من بواعث النص لا نستطيع أن نميزها من قريب أو من بعيد، كون السبب يكمن في ترتيبها.

نحن لا ندعي بأننا قد أمسكنا بسر التركيب، وإذ لم نَسند، كما نعتقد، هذه الصعوبة، بل هذه الاستحالة، إلى الإعجاز القرآني، فإننا نلجأ في محاولة تفسيرنا لضعفنا النسبي (أو كسلنا أو تواضعنا): إلى أن الكثير من الدراسات السابقة، التي يمكن أن نؤسس أنفسنا عليها، لم تنجز بعد هذا التحليل، حسب معلوماتنا: فعلى سبيل المثال، تسمح

تحليلات في علم العروض بعقد علاقة بين تطورات المعنى وحركات الإيقاع. كما نحتاج إلى فقه اللغة في معاينة قفلة الآيات ومتغيراتها المحتملة في مسار السورة إلى آخره. باختصار، نحتاج إلى سلسلة من الأبحاث يجعلنا الافتقار إليها في عزلة.

إن القرآن يعرّف نفسه بوصفه اتصالاً، غير أنه بكل تأكيد اتصال من نوع آخر. فمن منظور عمودي، نرى أنه اتصال من الله إلى البشر. ويعرّف نفسه بوصفه "بلاغًا".

وهناك كلمة أخرى تشد اهتمامنا أيضًا، وتتكرر ثمان وعشرين مرة في الكتاب، وهي كلمة "مصير"، التي يمكن أن نتجرأ بترجمتها "devenir"، حيث غالبًا ما نصادف في القرآن هذه الكلمة بهذا المعنى المرتبط بالانتهاء إلى الله. حيث تصل غائية الطبيعة، وغائية الإنسان في آخر المطاف، إلى الله، وتجدان فيه سبب كينونتهما: "وإليه المصير"، "إليه يذهب كل شيء، وفيه يصير كل شيء". وإنه لمن المثير للفضول أن يعود المرء بهذه الكلمة إلى أصلها في الفقه اللغوي: صار، يصير، فهي بحسب المعجمين، تعني اشتقاقيًّا تم العثور على "صير"، "مورد الماء". وإذا استندنا إلى اللغة العربية القديمة، مع ما تحمله من دلالات إيحائية

شعرية، فسنجد أننا نشعر بوجود الروابط بين صورة الصحراء والاستحضار الفكري. وإن المفردات القرآنية لتستدعي غالبًا هذا النوع من الإيحاءات. ولقد أحدثت آثارًا فكرية وعاطفية لدى المستمعين، فلا يمكن لمحاولتنا في إعادة القراءة أن تجهلها حتى وإن أخفقت الترجمة في إعادة بنائها.

وهناك أيضًا كلمة أخرى، وهي "طوْر"، حيث لا تظهر سوى مرة واحدة، إن لم أخطئ. وهذا مهم في الدلالة على "الطوْر"، و"المرحلة"، و"الفترة". ولقد كان القرآن هو أول من أعطى لهذا المفهوم كمال معناه. وظهرت فيما بعد فكرة "التطور"، حيث أخذت أهمية كبيرة في الفكر المعاصر الذي كان فيه ابن خلدون قد شكل درجة حاسمة.

ولنذكر أيضًا كلمة "أجل" ولنترجمها بـ "طور" أو "مهلة"، وهي أيضًا كلمة يجب التعليق عليها. ولكن كيف يمكننا فعل ذلك بشكل أفضل؟ فمن خلال اقتباس السورة 18 ومن قراءة الآية 38: "لكل أجل كتاب"، "ثمة كتابة لكل طوْر". لنتفق على أن القرآن قد جاء إلى طوْر معين من أطوار الإنسانية، وهو الطوْر الأخير، بينما فيما يخص الأطوار الأخرى، فقد اختص بها وحي آخر. وهذا ما يصب في مضمار النظرية الإسلامية التي ترى أن العصر القرآني هو

ذلك العصر الذي انتقلنا فيه من المعجزات المادية إلى المعجزات الفكرية والعقلانية والاستقرائية.

يصف القرآن نفسه بأنه شامل وخاتم بالنسبة لوحي الأديان القديمة، والتوراة والإنجيل. فاسم موسى على سبيل المثال، يتردد مئات المرات، ويأتي ذكر الإنجيل غالبًا. والشيء نفسه بالنسبة لكل ما له سمة تتعلق بتاريخ الكوارث التي حلَّت بالحضارات التاريخية. والأمر نفسه بالنسبة لما قبل التاريخ، ونجد فيه ذكر الرومان والفرس والمصريين، ونجد أيضًا ذكر من سبقوهم أو أولئك الهامشيين من أصحاب الإمبراطوريات العظمى الذين كانوا من سبأ (Saba) والبتراء (Petra)، أو من هيغرا (Hegra) (وهي مدينة تردد عليها بتوليمي Ptolémée)، أو أصحاب الرسّ، أو أصحاب الأيكة، يمثلون شهودًا لثقافات أكثر بدائية.

إن الوحي القرآني، ولأنه يستند إلى القيم الدائمة، فإنه يدعو إلى الحياة، وهو بذاته حي. وإنه لمن أجل هذا أيضًا يستدعي العقل الإنساني، ويضعه في مقام المسؤولية. وإنه، بعيدًا عن تثبيت نفسه في مكان، وفي شعب، وفي عصر، يقدم نفسه لكل الشعوب من خلال تحولاتها الذاتية في الزمن، ومن خلال تأثيرها الذاتي على الزمن.

سأبدأ في بادئ الأمر بالمصطلح الذي يشير إلى قلب النقاش في هذا الحين، وهو مصطلح صادر عن جذر "شين" و"راء" و"عين" يوحد في أس الكلمة ثلاثية الحروف وهي "شرع". فالشريعة هي القانون الموحى، خاصة بشكله أو بروحه القانونية، ومع ذلك، فهيهات أن تقدم الكلمة في أصلها المعنى الذي نعطيه إياها اليوم. فمن منظور فقه لغوي، تعني كلمة "شريعة" "الوصول إلى حوض الماء"، ونجد في القرآن أربعة استعمالات للجذر فقط. وهذا أمر قليل بشكل ملحوظ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾(سورة الشورى، آية13)، ونجده كذلك في السورة نفسها الآية 21، كما يمكن الرجوع إلى (سورة المائدة الآية 48): ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ﴾؛ ويتبيّن من هذا ما يشبه الترادف بين الشريعة والمنهج. فالمنهج هو الطريق، والشريعة هي فعل السير فيه.

كما أن الأسلوب القرآني يعرض من هذه التفاصيل الدقيقة ما يحتّم على المترجم أن ينتبه له تحت طائلة عدم إدراك أصل نصه.

لن ننسى بالتأكيد مصطلح "حكم"، فهو كلمة جامعة تستطيع، وفقًا للسياق الذي تأتي فيه، أن تعني "التنصيب"

و"السيادة"، و"الأهلية" و"القرار" و"الحكم"، وهذا المفهوم نتقبله بشكل عادي؛ فالحَكَم هو ذلك الذي "يحكم ويقضي"، وهو أيضًا "المحُكم". وتعني كلمة "حَكمَ" "قضى" كما تعني "فَصلَ" وكان حاسمًا. وأما "الآيات المحكمات" فهي الآيات الحاسمة التي لا يشوبها لُبسٌ. ويوحي الجذر نفسه أيضًا بـ"الحِكمة": "حِكمة لقمان"، وإنه على الرغم من الانتشار الكبير لهذا المصطلح، إلا أنه يعد، كما أعتقد، الأكثر ملاءمة مع المصطلح الفرنسي معيار "norme". لذا يمكننا طرح التساؤل التالي: هل الإنسان المسلم هو إنسان مقيّد من جميع الجوانب؟ هذا ما اعتقده الكثيرون، غير أننا نختلف معهم في هذا الأمر، وسنحاول أن نشرح ذلك لاحقًا. وعليه، نمكن بالفعل أن نتساءل عن عدد المعايير التي يحتويها القرآن، ولكن لماذا؟

إننا نفعل هذا، لأننا نواجه مناقشة شديدة تسود منذ جيل تقريبًا في بعض المجتمعات الشرقية، ما إذا لم تكن في وضع، أو إذا لم تكن على صواب في إعادة النظر في المادة القانونية مثلما ورثتها من فترات التشبع الغربي لكي تعود مرة ثانية وتستوحي من القرآن.

لكنها لن تستوحي كما فعل الزّهّاء أو الصوفيون، ولا

حتى فقهاء العصور القديمة، الذين جعلوا من القرآن قاعدة استلهامهم. كلا لا شيء من هذا البديل، ولكنهم يفعلون ذلك لكي يستنبطوا من القرآن ما يزود المجتمعات الإسلامية اليوم بأربعة أو خمسة آلاف من التفاصيل المجزَّأة إلى مواد على طريقة القانون النابليوني الضروري لسيرها.

(الرحمن الرحيم) وهذا يعني أن هذا الهوس العقابي تخونه اليوم وللأسف بعض النقاشات حول الرجوع إلى "الأصول"؛ لأنه يعي بالدرجة الأولى أصحاب السلطة، أو الذين يريدون بلوغها، وإنه لأمر غريب عن الكتاب المؤسس للقرآن.

فثمة حاكم كان يرسله محمد إلى ولاية بعيدة. فسأله: "كيف يجب أن أحكم؟". فأجابه: "بالقرآن". قال: "فإن لم يكن ذلك؟". فأجابه: "بالسنة". قال: " فإن لم يكن ذلك؟" قال: "فأجتهد". بالفعل، لم يكن اللجوء إلى العقل يخيف الإسلام في العصر الذهبي.

كان بود الإسلام أن يقيم الإخلاص، وكان يعي أهمية كبيرة للفطرة، كما كان يقوم على اليسر وليس على العسر أو "التصرف الحر". وأكبر مثال على ذلك نقتبسه من الآية 30 من سورة الروم: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾. خلاصة القول: أن الدّين والقانون الذي له أصل ديني يحييان الدين الآدمي، فالقانون يكمل الطبيعة دون إلغائها.

سنذكر في هذا الشأن حديثين فريدين مقتبسين من كتاب للنووي. أما الأول، فهو: "إن لم تستح فافعل ما شئت". غالبًا ما نسمع في النقاشات المتعلقة بتطبيق الشريعة إلحاحًا على الجانب القمعي لحماية بعض المؤسسات أو حماية المجتمع. "تأملوا بالأحرى كلام الرسول". فأضاف النووي قائلاً: "بني الإسلام على محور هذا الحديث". كما ذكر حديثًا آخر من الكتاب نفسه: "جئت تسأل عن البر؟". قلت: نعم. قال: "استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتْوك".

فالأمر الحسن يكمن في نوع من الرضا الذاتي في اليسر، أو في التصرف الحر للوعي والطبيعة. ولكن دعونا نستعجل بالتذكير بأن هذا الإسلام نفسه الذي يدعو إلى التصرف الحر للطبيعة في الإنسان يفعل ذلك من دون أي نزعة، وإنما حرية التصرف التي يوصي بها مصحوبة بصرامة نموذجية قصوى.

بإمكاننا أن نضيف أخيرًا أن تفسير القواعد وتطبيقها من مسؤولية الإنسان حتى ولو كان هذا الحق يحمل في طياته التجديد القانوني والأخلاقي ألا وهو "الاجتهاد". باختصار، يجب أن تكون قراءة القرآن استقصائية، استفهامية وإشكالية.

كتاب الاغاني

إن (الأغاني) ليس كتابًا. إنه في آن واحد سلسلة، ومجموعة، ومكتبة، وحوالي 20 مجلداً على أقل تقدير. هذا ما قد يصد أي مبادرة فردية، لكننا تجرأنا الخوض فيه.

هذه ليست ترجمة شاملة، بل هي خيار. ترأست النظرة المختلطة العمل التالي: مختارات باللغة الفرنسية، مختارات باللغة العربية في القرن العاشر، مليئة بالاقتباسات والصور والوجوه، وآثار الأساليب، وسمات العادات والتقاليد.

دعونا نركز على بغداد التي تهمنا بشكل أساسي، فقد كانت آنذاك تمثل مدينة صغيرة نسبيًا: حيث مر على تأسيسها أقل من قرنين، لكنها ضخمة وكثيرة التدفق ومترامية الأطراف. فعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نقبل بدون أن نشكك في عدد سكانها الذي بلغ المليون نسمة،

إلا أن السمو ينبثق من مئات الكنائس الصغيرة، والجماهير، والحشود التي تملأ الأزقة، والتمييز الشديد بين المهن، فكل هذا يستدعي مفترق طرق عملاقًا للشعوب والحضارات.

في هذا القرن الرابع للهجرة، عرض الإسلام على أتباعه العودة إلى حقيقة الإنسان والكون. حيث أخفى أتباع الوثنية، من مسيحيين ويهود، هذه الحقيقة على الرغم من وجود الكتب المقدسة الأولى التي كانوا على علم بوجودها. جاء الإسلام لإعادة الأمور إلى مجراها، وكان ذلك من خلال استعماله للغة العربية. فمن لغة قريش أو شعر قينة، روّج الوحي لهذه اللغة على أنها الناقل للكرامة البارزة للكلمة الإلهية. وفي الوقت نفسه جعل الإنسان الوسيلة الأولى التي كان رثاؤها من قبل معارضي الإسلام صراخاً بلا جدوى. لا شك في أنهم أعجبوا بقصائدهم اللامعة والمتحفظة للكلمات والأحداث وجماليات الشكل، غير أنهم يلامون، مثل ما يعيب فيهم القرآن الكريم، على أنهم "يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ". فما نشروا سوى الوهم والهروب، في حين أن القرآن، وهو يمجِّد وحدانية الله، أيّد حقيقة العالم المحيط.

والحقيقة هي أن العرب الذين هُمشوا في الإمبراطوريات القديمة، تلقوا أكثر الدوافع فعالية؛ فقد تحققت نجاحات عديدة في هذا المجال، لا سيما أن أداة الكتابة المرموقة قد جاءت أيضاً لخدمة الإيمان.

إن (الأغاني)، من خلال ثروته ونضارته، يوقظ فكرة الغرابة التي لا يمكن أن يكون اضطرابها سطحيًا فقط، وإن كان هدفه هو جمع أغان مختارة، فهو في الواقع يجمع قصائد من الحقبة الأولى حتى نهاية القرن التاسع. ومن ثم، ومن أجل إلهام القارئ، فإنه يعرض مجموعة متنوعة من الأنماط التي يمكن لعلماء الشرق، الذين يقرؤون هذه المقتطفات بصوت منخفض، أن يتذوقوا الإلهام والتمثيلية كما نسميه. فكوننا أكثر انتباهًا منه في عصور الذوق المتعاقبة، نتساءل عن الذي يمكنه أن يشهد مع معاصريه على الجامع نفسه. ألم يُترجم بالضرورة خياراته؟ والأهم من ذلك، ألم يترجم المادة اللفظية ذات المراجع الجماعية التي اعتنقها بنظر الكبار، في الثلث الثاني من القرن العاشر، الذي كان وراءه أربعة قرون من التطور المؤكَّد؟ ألم يمكن، على امتداد مدة زمنية كهذه، أن تغير وظيفتها أو شكلها أو طبيعتها بمرور الوقت. تغني العديد من المقاطع النافية

للإسلام المنفى الأساسي: وحدة الرجل في الصحراء، رثاء على خطى المخيم المهجور. في "معلقة امرئ القيس" الشهيرة، يمزج البطل بين هذا الإهمال وتهويل الابن الذي كَّرس نفسه للانتقام لأبيه المقتول. هل يمكننا أن نستخدم هنا، بدون مفارقة تاريخية مسيئة، نظرية لاكانية؟ إنها تضع كسرًا أو فجوة في بداية رمز اللغة الذي سيمنح المتحدث قبضة على العالم، ولكن بأي ثمن؟ بثمن فقدان الالتزام بالكمال. يترجم هذا الجرح الأولي إلى تعقيد في النفس، وإلى أساطير في الخيال الجماعي.

تم استبدال دور الشعراء لبعض الوقت. توقف لبيد عن كتابة القصائد. عاش تراث العصور القديمة كديوان أي "أرشيف" العرب. ثم استأنف الشعر، مع وقاحة عمر بن أبي ربيع الساحرة. وعلى أية حال، هل حدث أن توقف يومًا؟ ربما كان قد غيَّر من وظيفته دون أن يفقد الكثير من صلاحياته؛ هو الذي كان دائمًا يعمل على نمط حياة شخصية وجماعية متميز، قد غطى كل أو جزء من هذا الدور وهو لا يزال يحتفظ به اليوم. كانت هيبته التي أضعفتها أخلاقيات الإسلام منخفضة القيمة بهذه الطريقة، لكنها بقيت دائمًا رهيبة، إذ كرست في خدمة الاستبداد والأعمال الخيرية

الخاصة. ما تغير هو الدور السياسي للشاعر، لأنه لم تعد هناك استقلالية للمجموعات في القانون. لقد فقد الشاعر استقلاله، وحتى إن كان ذلك صحيحًا، فقد فاز بالمقابل بحماية حماة، وجلالة الخليفة بأعلى مرتبة منهم. يشمل الأمر حقًا الخدمة، لذلك سوف يسعى الشاعر للحصول على تعويضات في براعته المتنوعة، أو في استعادة الأحداث الماضوية. لقد جرب كل هذه الطرق في سياق تاريخ أدبي غني ومؤثر. إنها براعة لغوية ستحافظ على مكانتها لدى الجماهير والنخبة. إن الشعر قادر اليوم على تحريك المشاعر والسحر، والتخويف، والسخرية، وإثارة السخط وفقًا لأشكال قيل عنها بالفعل كلاسيكية، مثل المرثاة، والأغنية، والأناشيد، والهجاء. على الرغم من أنها تفعل ذلك باحترام علم العروض المقنن، فإن أصالة الأجيال والأنماط والأساتذة يمكن أن يعترف بها دائمًا جمهور وناقدون يتمتعون برؤية حادة.

إنه يدفع إلى التآزر أكثر منه إلى العمق، فهو ليس على يقين بذلك، لأنه ثمة شعراء عظماء عُرفوا بأعمالهم طوال هذا التاريخ. ومع ذلك، فإن الاتجاه العام، بقدر ما يمكن للمرء أن يحكم، سيكون دائمًا لدى العرب في قياس قيمة القصيدة بقدرتها البريئة على نقل المعلومات، والتعليم، والحكمة. أليس

هذا ما ينتظره جمهور كبير "مثقف" وكذلك "مبتذل"، من المتنبي؟ دعونا نسمي هذا، دون أي هدف ذي قيمة، "شعر الكلام"، بالاحتفاظ بمصطلح "شعر اللغة" في محاولة إيجاد كلمات ذات عمق أكبر. يمكننا الوصول إلى مثل هذا التمييز بشكل أكبر منذ تقدم التحليل اللغوي، حيث يسمح لنا بالتمييز بين جزء من الإبداع الحقيقي وبين ناقلي التراث.

وهكذا، قام هارون الرشيد المشهور، الذي هو نفسه من الهواة المتحمسين للأغاني، وشاعر شغوف في بعض الأحيان، بالأمر بجمع عدد من خيرة الشعراء. نحن نعلم ذوق العرب لمجموعة المختارات الأدبية. تفسح (الأغاني) المجال لنقاش خيارات من هذا النوع، ما هي أجمل قصيدة عن الحصان، يتساءل المرء، أو ما هو أجمل وصف للخيمة، أو أجمل بيت شعري في اللغة، إلخ. هذه المرة كانت المسألة تتعلق بالبحث واختيار أفضل مائة أغنية من بين أجمل الأغاني العربية. في الحقيقة، يقول المشككون: إنه جرى اختيار 99 قصيدة شعرية فقط، سواء من أجل عدد الصفات الإلهية (أسماء الله الحسنى) أو خوفًا من الإصابة بلعنة، أو لشرح الإضافة الأخيرة لمجلد مخصص لأبي نواس، طالما أن هذه الإضافة ليست بالشيء الملفق.

"استنزاف العالم"

المقاطع الضائعة للأنثروبولوجي

"ما يحدث للعرب وما يحدث لشعوب أخرى سبقتهم وستأتي بعدهم، هو تغير لمعنى الوقائع، تعديل جديد للوجود، أو على الأقل في تفسيراته، وتداعياته التي يحسون بها. حتى إنه أتى اليوم الذي يلتقي فيه التاريخ بالواقع المغاربي، بالرغم من أن التاريخ تناوله من قبل، لكن على أي أساس: هل كانت فرصة للالتقاء به أم مادة له؟ لأنه وفي يومنا هذا، يبدو التاريخ وكأنه شمولي، ذروة الواقع، لكن لا يشمل على الواقع نفسه الذي يبقى بدون شك أكثر قسوة.

نحن نقوم به منذ أكثر من قرن ونصف على الأقل، قد نحاول قبل كل شيء رؤية أنسفنا فيه ورؤية رغباتنا التاريخية فيه. إخضاع حياتنا لهدف معين يأخذنا الزمن من خلاله إلى مكان آخر، المدة "يراد بها" أمرٌ ما. كل شيء يحدد مفهومه حسب هذا المسير، سواء كانت حقيقة أو فرضية، تقدم مكتسب أو مرفوض، وبوعي التدريجي. منطق متقارب، جدلية متصاعدة نابعة من كل التقلبات. يتجسد من حولنا، مظهر المدينة وحقول في نفس الأفاق".

المجتمع القداسي

"يفرض طرق التقوى في طريقة الكلام، اللباس، الأكل، الحب. يأمر بكل أمر شرعي أو غير شرعي. يعارض الفائدة البنكية وشرب النبيذ، كما كان الحال عليه بالنسبة للشاي والقهوة، التبغ أو حتى في استعمال ستائر السرير المستوردة. بالرغم من أن الهدى الديني لم يغب أبدًا عن الصورة، وأن الحرام في الإسلام يُعدُّ انتهاكًا للشرع أكثر مما هو عدوى حميمية، المؤمن يمشي في مزالق لا حصر لها".

عقدة أوديب الكولونيالية

إن عملية تصفية الاستعمار لا تقف عند حد الولوج إلى التاريخ، بل تريد أن تكون مطلقة وقوة منتصرة من الأوجاع المطلقة. نتج عنها رفض كل نسبية متأصلة للزمن والمكان، واعتراض عن الخصوصية المؤثرة من شعب لشعب، القوانين العامة. وقد جاء هذا الاعتراض بطريقة غريبة لحظة مطالبة كل شعب بهويته؛ نجم عن ذلك تنافر بين الأحاسيس والأفعال. كيف لنا أن نتعجب من هاته الفوضى؟ ليس فقط تجديد للتاريخ، بل عملية استبدال للقيم.

ليس هناك تجلٍّ للحاضر بدون إحياء الماضي. ليس هناك فعل يمارس على الآخر بدون فعل يمارس على الذات. ينبغي معرفة الذات ومعرفة الآخر من جديد.

كل أمر يحدث كما لو أن الاستعمار تدخل في شؤون بلد بعد عدم قدرة نظامه التقليدي على مواجهة المشكلات التي أنتجها الزخم التكنولوجي، بالرغم من أنه يمارس خارج هذا النظام. كل أمر يحدث كما لو أن تصفية الاستعمار تدخلت بعد عدم قدرة النظام الكولونيالي مواجهة المشكلات المطروحة بتفاقم نفس الزخم الممارس، سواء بالداخل أو بالخارج، لكن الآن هذا الأمر بتصور وبإرادة المعنيين بالأمر بأنفسهم.

"استعمر" بدون شك يعني، تحت التوترات المفروضة وبعيدًا عنها، إحداث تأثيرات ممارسة، وإثارة ردود أفعال، وخلخلة نظام الروابط الخاصة بمجتمع ما، وقابع بين الطبيعة والثقافة.

الكولونيالية، بين الطبيعة والتنوع

"من بين التأثيرات الأكثر وطأة على هذا الفعل، نؤكد عليه، أن في مجتمع ما، تفكك الرابطة بين الطبيعة (الفطرة) والثقافة الخاصة بهذا المجتمع.

تقوم به أولاً بالتقليل من قيمة ثقافة الأهالي. تعطيهم انطباعًا بنزك التركيز العام على جميع مجالات الحياة المحلية، فيصبح الدين خرافة، والقانون العرفي فنًا فلكلوريًّا.

قيم تصفية الاستعمار

بالرغم من أن ثمة أمم تولد حاليًّا مرفوعة الرأس، كما لو أن الأمر يتعلق بتنزيل من العالم المثالي أكثر مما هو نضج وإدراك للملموس. إلا أنها سرعان ما تبحث على تأسيس حريتها، تحت طائل الانقراض، أو تحت طائل الحلم، مبنية على عزائم مادية.

كان يتوجب على هاته الشعوب إعادة ابتكار ثقافة وعادة والانتقال من هاته لتلك، هذه الحتمية والمقياس غير متوفرين. وعلى درب الثقافة، سيجدون الآن الشمولية. ليست بيداغوجي وقمعية مثلما كان عليه الحال في زمن الاستعمار، لكنها التزام ضروري لكل شخص. انطلاقًا من ذلك ينبغي البحث عن التوازنات الأكثر دقة بين الإرث التاريخي، الذي استعيد بالتأكيد، وبين الإسهام الخارجي. تلك كانت بشمال إفريقيا حقبة أطلق عليها اسم حقبة "المرابطين"، رؤساء الزوايا، أو الشرفاء.

"الإسلام في زمن العالم"

مازال المسلمون إلى غاية يومنا هذا ينكرون بعض الإسهامات باسم وبسبب شرعية لا يمكن لأي كان إيقافها. في حقيقة الأمر، لا يطالبون فقط بما هو مطلق، بل يطالبون

أيضًا بالرجوع إلى التاريخ؛ فهم على غرار بقية شعوب العالم، يطمحون إلى تحقيق ذواتهم. هذا من المؤكد، لكن على أي أساس؟ الله، الطبيعة؟ في جميع الأحوال على قواعد تبنى من جديد بعيدًا عن كل اعتراض، بل عن أي تصنيف إقصائي. يكفي فقط أن تكون نابعة من الإسلام، ومن ثم إعلانه كسلطة قرار، القرآن، وإقرار الكثير من رموزه. وبما أنه يعكس هويتهم وليس بتقليد للآخر، فمن يريد أن يفتح لهم الباب للولوج إلى العالمية، عليه فهمهم على وضعهم، أي على أنهم مبتعدون، وعلى أنهم متضامنون، وعليه إعادة قراءة هذا الكتاب الصريح.

التاريخ الحديث

بعد سقوط المجتمعات الإسلامية، وكذا شعوب أخرى تحت سيطرة قوى كان يتوجب عليها التوسع والهيمنة على هاته الشعوب، تابعت هاته الأخيرة بجهد متواضع، من المغرب الأقصى إلى أندونيسيا، البحث عن الحفاظ على ما بقي لها في ظل ممارسة الاختلاف. فقد فُرضت عليها قوانين التطور الاقتصادي، واقترح عليها نموذج البروليتاريا الغربية كأحسن مخرج لها، وتحت ذريعة العولمة السياسية. فاستعانت بهاته الأحادية المضلة بالمقارنة

مع النقاء الحقيقي لما كان مكسبًا لها: الإسلام. فبالنسبة للعرب، الشعور بالاعتزاز بالماضي والأمل في أن يحققوا من جديد " كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"، هو بمثابة انصهار الألفية مع المظاهر الطبيعية حيث وضعهم توسع الإيمان في "موضع صدق"، واستمرارية اللسان، بتميزه في ظل تعدد اللهجات، كل هذا يندرج في رمز بيّن، يتجلى بدوره في رموز: القرآن.

القرآن في نظر العرب، قول "منزل" من السماء دخل بيوتهم، وجدوا أنفسهم في قول الله، تمثيل الشيء، الذات أو الفكرة، رسم مثالي، ولكن تجسيد لشخص الرسول، نظرة عن صلات الإنسان بالحياة الدنيوية والحياة الآخرة، امتياز مُهدي، وما يترتب عنه من التزامات، نموذج لساني بوصفه كاملاً بالمقارنة بما قيل وما سيقال بلغة القوم. غير أن التقاء عدة سمات يجعل من كل ما هو عربي، مثلما ذكر ل. ماسينيون (L. Massignon)، محور الإسلام ومن الإسلام محورًا للعرب، ويجعل من القرآن كتابهم قبل كل شيء.

دخل ذاكرتهم مثل لحن أساسي تتغنى به كل مبادرة فردية أو جماعية. تظهر ملامح الهوية بدءاً من حديقة الطفولة. يحمل الترتيل الدائم الحضور ذاكرة الكبرياء المخدوش منذ

زمن الذي ساهم بأن نبقى كما نحن، وبسبب العولمة الزائفة للآخرين، تمكنوا من معارضة ذواتهم.

هذا، وما هو مدهش في القرآن، هو أن عمق التعاطف مع المحتاج وأمل الجماهير، جعله بالنسبة للعرب ولحقبة زمنية طويلة، بديلاً عن الوطنية، إن صح التعبير.

ذلك أن الحداثيين اقترحوا قراءة جديدة، موجهة إلى تجديد مفهوم الوطنية. في سورة يوسف، يستخلص الشيخ القاسمي فناً سياسيًّا، فالاقتداء بالرسول يهدف حسب نصوص الكُتَّاب المشهورين: هيكل، وطه حسين، وأحمد أمين وآخرين، إلى نمط شخصية مطابقة للتغيرات في التعبير وفي الإحساس. فهل يعني عقلنة الإيمان إلى هذا الحد، أو على الأقل تجسيده اجتماعيًّا، والتخلص مما هو جوهري؟

بالمقابل، وفي فترة كنا نتحدث فيها عن إعادة تعريب الثقافة والتعبير، كانت المدارس القرآنية تعاني من أزمة عامة، نابعة من بقايا الحنين إلى الماضي، ومن آثار المقاومات، فالمشروع الأكاديمي لا يتضمن بتاتًا العلوم الدينية، بل ينظر إليها على أنها تقليد أكثر مما هي علوم معيارية، على أنها مطلب أكثر مما هي واقع، فأساس المؤسسات وأساس الدولة لا يعتمدان على النص على الرغم من أن هاته الأخيرة غالبًا ما تصرح بوفائها له.

رسالة من خمسة أركان

"الله هو من يوحي والرسول ليس إلا نذير، فالتركيز مسلط إذن على لحظتي الرسالة، لكنه يخص أيضًا "المتلقي"، ألا وهو الإنسان، يذكره ويغيره".

في الأبعاد المتعددة

يمكن ملاحظة أن كل مجتمع مؤسس على عدة أنماط: نمط التقنية، التنظيم، المقدس، التسلية، الجميل،... إلخ، في حركة مختلفة وشاملة، تتشكل لديه صورة أولى، تُكوِّن صورة الإطار هاته الأنماط عمادًا له، متشعبة انطلاقًا من مركز ومتماسكة بالنظر إلى انتشارها. لكن هناك استنباط آخر يطعن في الصورة الأكثر تفاؤلاً، صورة التفاوت بين الأنماط أو القطاعات التي تخلخل نسق الكل، بتعديل طريقة التصرف ويمكنها تحريف المعنى. نطلق عليها إن أردتم: تناقضات. فكل العالم معني. ولا يتعلق الأمر فقط بالشعوب المتقدمة، بل كذلك بالشعوب الأخرى، بل على هؤلاء التحمس أكثر من الأوائل، عليهم الانخراط في أهداف الثورة العلمية والتقنية التي تفرض نفسها حتى على أولئك الذين يعارضونها؛ لأنهم وحدهم قادرون على إبداء حجج المساندة أو الاعتراض.

البحث عن مكافآت مناسبة

بعد رفض الفكرة المبسطة على أن التقدم يتمثل في انعكاس هاته الأبعاد على مراحل التطور التقني والعلمي، أو حتى التحلل إلى عوامل "مادية"، يعتقد أنها قادرة على نسق السببية وعلى تطوير الفصل في الأمور، كيف يمكن تحديد مضمون "الإجابة" عما هو مورفولوجي، مقدس، جمالي، مُسلٍّ، الوصول إلى ذروة التقدم الصناعي؟ أم يا ترى هل هاته الإجابة ضرورية! فعدم قدرة المجتمع على إيجاد هاته الإجابة وتفعيلها، تُخاطر الكثير من مؤسساته الأكثر نشاطًا بلعب دور الكبح والهروب بالمقارنة مع التوجه العام.

في العالم الثالث، وعلى وجه الخصوص في البلدان الإسلامية التي تبدو لي أكثر ألفة، تُطرح فكرة معارضة ما هو "جديد، نقدي" أو "قديم، عضوي" بحدة وبصورة متجزئة أو متباينة، تقاوم بذلك الأحداث والسلوكيات المنبثقة من الحداثة الدخيلة مقارنة بمجتمع يهيمن عليه الإسلام بحدة. كان الفضل للعلامة الشيخ "عبده" أواخر القرآن الماضي، في منح هاته الحداثة المخربة جدار تصدٍّ، بتوطيد ما هو رباني من انزلاقاته، وبالرجوع إلى المصدر

والمبدأ، فقام بتسوية المعيار. في الوقت الراهن، تظهر أطروحات "التجديد"، و"التنمية" و"التطور" في معظم الدول العربية والمنتشرة في القارات الثلاث، بحجم التخطيطات، والإصلاحات والثورات، هي حاجة إلى تحيين معترف به ضمنيًا في كل مكان.

لننظر إلى مجتمعات العالم الثالث تلك، أين يمارس هذا الإجراء بأكثر انفتاحًا مما هو عليه الحال في مجتمعاتنا. فهي تحاول جاهدة بتر كل ما له طابع تحطيمي، دخيل، تخريبي، والمتمثل في الحداثة باعتبار أن الحداثة الحقيقية لا تنبثق إلا من هويتهم. إلا أنهم بعيدون عن الإدراك! فهي تلجأ من أجل تقليص فقدان الهوية، إلى هيئات حماية: العقيدة، المطلق، الأخلاق المرتبطة بالجنس والعائلة، أنه كبرياء الكلاسيكية. فأصبحت هيئات الحماية هاته محمَّلة بعبء يمكن أن نطلق عليه (رمزي)، لأنها تتصرف في السلوك الجماعي بإمكانيات منقوصة من الخطاب ومن الكينونة. خطوة إلى الأمام، يقابلها اعوجاج نحُسٌّ مرارته، تظاهر عنفواني ضد التقليد وضد غير المألوف، يرون تهديدات الهوية أكثر وقعًا وأثرًا، لذلك يتم البحث عن التعويض ليس فقط بمعنى الكتلة المقابلة، بل في ردة الفعل.

تكييف متبادل

لذلك فإن الإسلام الانفعالي لا يكتفي بمعارضة الإسلام التقدمي المؤسَّس على فرضيات منبثقة من المطلق، بل يضع لنفسه شبه تاريخية، وفق ما تقتضيه القضية، بالعودة إلى العصور الذهبية التي ليست إلا ميثولوجيا (أساطير). بالعكس فالاصطلاحيون الحقيقيون يحاولون دمج انفتاح الإسلام بتجديد مصادره ممن هو أصلي. وما زال النقاش متواصلاً.

التقدم والفرادة

إن تمكنت الإمبريالية من الهيمنة، ولحقبة زمنية طويلة، على شعوب ثلاث قارات على الأقل، وإن تمكنت من الإبقاء على أشكال أخرى من الهيمنة في عدة أماكن، بفرض وضعيات، أو بمواقف من العالم الحاضر، ذلك لأنها عرفت دائمًا كيفية استعمال توسع ثورة الآلة والعلاقات الاجتماعية والذهنية، التي تحمل هذه الثورة وتحملها هي، لصالح أغراضها الشخصية.

بنظرة إيجابية، بالرغم من أنها مشوهة، فإن هاته الثورة تستلزم إعطاء معنى للتاريخ العالمي وللتوحيد

القارّي. فقد تمكنت لمدة طويلة من اعتبار الذوبان على الأقل جزئيًا، أو حتى من نزع أحقية الثقافات والمجتمعات المفرطة إلى طريقة إنتاج غربية، كما لو أن هاته الأخيرة هي من تحصلت عليها بمجهوداتها الخاصة، منحها حق في الولوج إلى المستقبل.

بالرغم من ذلك، ومنذ الحرب العالمية الأخيرة، انتشرت فكرة مغايرة، وأصبح لها صدى في العالم تتمثل في إعادة إحياء الهويات الجماعية، أو بالأحرى إحياء شرعيتها؛ ذلك أن التقدم نابع من النخب الاجتماعية والثقافية المتمحورة حول مطلب الشعوب المستعمرة التي فهمت وبدأت في تطبيق الاستسلام حتى وإن كان جزئيًا، فهو حتمية أكثر مما هو قابل الاحتمال. من اللازم إذن توضيح أن الثورة التقنية كان بإمكانها أن تؤخذ على عاتق المواضيع القديمة، بل من طرف هاته الشعوب حسب نمط أهدافها الخاصة.

انحرافات العولمة والخصوصية

أصبحت العولمة توفر للجميع تطور الاتصالات الجماعية، في سرعة التبادلات المادية والإيديولوجية، ولم يعد توسع النموذجية والآليات محل معارضة فلسفية ليدخل

بذلك في مجال الحياة اليومية. حيث خلقت الانحرافات التي تحصل بمرأى من أعيننا: فقدان المعنى، التطابقات المفسدة، الهيمنة الجديدة، اللامساواة الجديدة، طرق الصوفية الجديدة، اعتراضًا تختلف أشكاله من بلد لآخر.

الإدراك وحدود التكنولوجيا

الأمر نفسه ينطبق على الإمبريالية الكلاسيكية المؤسَّسة على مبدأ أن التسلط الذي ينبني دائمًا على هذا النوع من مخادعة التقدم: الاستعمال الأحادي لسلطة التكنولوجيا، حيث يمكن لخصوصيات الشعوب أو خصوصيات الثقافة التي باسمها قام النضال نحو الاستقلال أن تصبح في بعض الحالات غطاءً للماضي وللمغالطة. فأكبر نقطة ضعف لدعاة "الخصوصي" هو إخفاقهم في تحديد مفهوم "نحن" الذي يطالب بالحقوق، لأنه نابع قبل كل شيء من إحساس موروث، ينخدع من صلابته الخاصة التي ينظر إليها على أنها تقليد أكثر مما هي ابتكار. في حين أن استمراريته تنقل له من الماضي طاقاته الكامنة الدائمة الحضور أكثر مما تنقل له مكتسبات ثابتة ولا تتغير أبدًا، هاته الأخيرة، سواء كانت حقيقية أو مفترضة، هي من يستحضرها كهدف.

يرمي النظام الإسلامي إلى تأسيس كل مستقبل بالرجوع

إلى الماضي. بالنسبة للكثير من المفكرين، فإن الابتكار يتشكل من التجديد".

تقول المتلازمة البديهية إن الحداثة ما دامت تبدو لشعب على أنها آتية من الخارج، عن طريق مواضيع وأجهزة وطرق استعمال وعادات استهلاكية، وبطبيعة الحال نماذج تفكير، فإنها تسبب الاعوجاج نفسه وستعاني من العراقيل نفسها مثل التوسعات الأخرى المتعددة الصيغ، فلا يمكن لشعب متلقٍّ أن يجد نفسه إلا أن كلف نفسه بتملكها. "تملكها" أعني بذلك وضعها داخل لعبة الذات. هاته اللعبة التي أحبطتها الحقبة الزمنية الأخيرة ووضعتها في خطر.

الإسلام عند طه حسين

إن قلتُ "إسلام"، فأنا أفكر بطبيعة الحال مثل طه حسين في الدين مثلما يفكر هو، ولكني أفكر كذلك في الثقافة وفي التاريخ الماضي والحاضر لمجتمع ما. يبقى دائمًا هذا السؤال حول الإنسان الشرقي، المعاصر لنا في علاقات بين الإسلام الدين، الإسلام الثقافة والإسلام والجماعة، هل يمكننا التساؤل إن كان هذا السؤال ليس إلا - وبدون أي قيد أو شرط - تماثلاً مع السؤال الآخر الذي يطرحه جميع علماء الاجتماع، المختصين منهم أو لا،

حول التغير الاجتماعي، لعلاقات الإنسان، مدى شرعيتها (صدقها) وتحيينها الخاص بها".

الانتماء إلى الإيمان

ما زال القرآن إلى اليوم يمثل بالنسبة للإسلام، وبالأخص للإسلام العربي، نموذجًا خالدًا في جوهر قوله على العموم. هذا الحضور الذي يولِّد في وعي الملايين من المسلمين التقليديين مرجع التعالي، والانفعال الجمالي، والانسجام في الحياة اليومية. إن خطر ببالنا كذلك بساطة هاته العقيدة، يمكننا فهم أن العقيدة يمكنها تجاوز التعليم الديني، أو على الأقل تحل محل مبدأ الوحيد والوحدوي للدين.

نور الإسلام

بخلاف النظرة المتداولة، لا يدمر الإسلام الأرض تحت السماء، ولا يختصرها في رموز. بالرغم من المعنى القهري للمطلق، فهو لا يبطل باسم الله سعي الإنسان ولا ينفي حضور الأشياء. يذكِّر هذا الإنسان بعجزه وبضعفه. إلا أنه من المؤكد يقبل بِسِماتهم البشرية بقسوتها وتلهفها، حتى إنه يتيح له الفوز في عنفوان حيوي بما ينكره عليهم الشرف الوجودي. فالمسلم بمجرد ولوجه إلى الغيب، وإلى

رسالة القرآن، يمكنه ويتوجب عليه البقاء على طبيعته. فهو يسعى إلى تسيير شؤون الدين والدنيا معًا بالتوفيق بين التعالي والفطرة والمجتمع؛ فالإنسان في الإسلام يمكنه أن يسعى لتحقيق أهدافه الدنيوية وأهدافه الأخروية بدون أن يميل عن قواعده الخاصة".

اعتباطات تحكيمية

الإسلام بدءاً من الأصل، مُعرّف على أنه علاقة الإنسان بما هو غيبي. بالنسبة له فإن التعالي المبلغ للإنسان في القرآن هو رسالة مهمة في حضور دائم الحيوية. نموذج لا يُعلى عليه، فكل المؤمنين مدعوون إلى الاستقامة في سلوكياتهم، أخذاً بالحسبان همم الوجود والتنوع المذهل للوضعيات الحقيقية.

إن العلم والفضيلة وحدهما يرفعان "الدكاترة" أو العلماء إلى درجة قديسين. في مفارقة تبدو عجيبة لكثير من الغربيين، فالإسلام يتمثل على شكل فطري ومتعالٍ، موحد ومُحترم للاختلاف في أن يضع واحدًا، تقليدياً وضد مؤسساتي، ديناميكيته وبقاءه في تشريع لا يسمح بالاستفادة من أي امتياز قداسي ولا من مركزية، ليس هناك مكان للتشريع الكنسي.

محمد خاتم الأنبياء"

نسخة من تاريخ الطبري، مترجم إلى الفرنسية من طرف هارمان زوتنبرغ، مقدمة من طرف جاك بيرك

الشخص الذي نتطرق إليه في هاته الصفحات من العربية إلى الفرنسية، المنقولة بوساطة اللغة الفارسية، ليس من رسل التحالف القديم، ليس بطلاً من العصر الذهبي، بل رجل ابن بيئته ووليد زمانه. من النبلاء ومن سلالة إسماعيل، جدير بالمشورة وبالفروسية، تألفه القطعان والقوافل مثلما وصفه لنا الشاعران عنترة وعَبيد وساعدانا في تصوره، ما عدا هاته الهيئة المرتجفة، هذا التلون الدافئ اللذان نقلهما وسما بهما فجأة بفضل نداء أتاه من الأعلى.

نزل عليه الوحي وهو بالغ، بعدما أكد مطولاً إسهاماته، لم يفصل بين قومه إلا بسلامة القلب. ينتمي إلى السلالة الأرستقراطية الهاشمية، زعيمها عمه أبو طالب الوفي والمصرُّ على عقيدة أجداده، إلا أنه عرف كيف يحميه من حقد وسخط القوم بسبب سلوكه غير المألوف. لكم أن تتخيلوا عربي الأصل، الوجه والإيماءة، لم يغير التسابق بالصحراء إلا قليلاً من بشرته المضيئة أصلاً. خصلة شعره سوداء ولامعة مسترسلة إلى كتفيه. في وجهه نور لدرجة أنه وفي حضرته لا نقدر على فراقه". حان الوقت،

يُحسن تسيير التفاوض وتسيير الحرب. كان يملك سبعة أحصنة وسبعة سيوف، كل واحد منهم يحمل اسماً. من أعطانا هاته التفصيل؟ الطبري، مخلص للتقاليد وللانتماء: ما زالت صفات محمد منذ زمن وإلى يومنا هذا قائمة، نموذج مادي وأخلاقي، جمالي وروحاني.

لنُعد قراءته بلا ملل، الشخص المختار لهاته المهمة الساطعة، ختم الدورة الألفية للوحي، ليس إلا رجل شبيه بأولئك الذين يخاطبهم. لا يتمتع بأي معجزة غير الصفات الفطرية فينا ومن حولنا، التي تنتقل حسبه إلى البداهة، لـ"السيادة" و"الطيبة"، تلك هي حقيقة الآفاق التي يكمن فيها التعالي.

الكتاب نفسه، في نظر الإسلام، يحمل في شكله وفي مضامينه وفي وحيه أكبر المعجزات: أيمكنني القول الضروري الأوحد؟

لقد أصبح من التقليد متى كان ذاك ممكنًا ذكر سبب تنزيل سورة أو آية من القرآن، نقل حادثة بالحديث أو من خلال الذاكرة الجماعية، لكن هل لنا أن نجرؤ على قول: نقل أو استكمال النص في حد ذاته؟ ألا ينبع هذا المنهج في البحث عن أسباب التنزيل من الإبداع في علم

الأسباب، ألا يكشف عن إحدى إعادة البناء الرجعي الذي لمحنا إليه من قبل؟

كيف كانت نشأة وتطور العلم الإسلامي للحديث النبوي، فإنه كان لوقت ما بالنسبة للعرب ذاكرة أنساب الجماعات التي ينتقدها هذا العلم، لكن بطريقته الخاصة. على كل حال، مورس هذا النقد وما زال يمارس داخل الإسلام حتى على سيرة الرسول إلى درجة أن كاتبًا بالعصر الحديث شكك في سيرة بني هاشم.

ليس لنا أن نحشر أنفسنا في هذا النوع من النقاش، إلا أن الصفحات السابقة تنبئ أن سرد الطبري لم يكن ساذجًا من حيث المنهج، بل أصلي من حيث التأصيل، فمدة القرنين والنصف التي تفصله عن موضوعه المركزي مملوءة بتطور هاته الثقافة المتشعبة والمتنوعة. عوامل هاته الثقافة التي كانت تنمو في جو مستمر من النزاع المذهبي، لم تتمكن من إخفاء الهُوَّة التي اتسعت بينهم وبين مصادرهم وأنموذجهم. في جيلهم، مثل الجيل الذي سبقهم والجيل الذي يليهم كان يتوجب عليهم اتِّباع المصدر، طريقتان في التناول كان عليهما أن يتقاطعان، إحداها تتمثل في استكمال الحاضر والمستقبل من خلال المصادر المعروفة

بثباتها، والثانية على استنباط أو على الأقل تفسير أو إتمام هاته المصادر باستعادة الأحداث. من هنا ظهرت معايير ماهيَّة التعالي المكيفة مع الزمن، بحيث إن هذا الأخير يسعى للامتثال لها.

ترجمة مقتطفات من نصوص حول جاك بيرك

جاك بيرك بقلم جان سور (Jean Sur)[1]

إن جاك بيرك - كرجل فرنسي - يهتم بمصير الثقافة الغربية، وكمتقن للغة العربية فهو يسعى إلى تعزيز الوصول إلى تنمية الدول المستبعدة بشكل مأساوي، حيث واجه مسألة المجتمع الصناعي، وهذا يعني مسألة الغرب الذي أعطى تطور التكنولوجيا مدى وتأثيرًا وسلطة عالمية. تكمن أصالة عمله في هذا التأثير المزدوج على واقع العالم. يتحدث بيرك عن هذا المكان وعن ذاك. هذا الانتماء المزدوج، أو بالأحرى هذا الالتزام المزدوج، كما يقول، يستعير من مفردات مصارعة الثيران كلمة تشير إلى جزء من الحلبة أين يحاول الثور المضايق أن يستعيد قوته، وأن هذه اللحظة تمثل وقت مطاردته. كان ينظر دائمًا إلى الغرب والإسلام دون أن يتم الخلط بينهما، وكان يقبلهما في

(1) Mustapha Cherif, Jean Sur. Jacque Berque : Orient Occident. Edition ANEP , Alger, 2004.

خصوصيتهما، واستكشفهما في أسسهما، واستجوبهما حول علاقاتهما مع العالم، فهذا هو الشغل الشاغل لهذا المؤرخ اليعقوبي، الذي أكد كونه كاثوليكيًا رومانيًّا، وعاش بين الإسلام طوال حياته.

آخر مؤيد للتقدم

لم تهدأ المشاعر العنيفة والمتناقضة لهذا الرجل الذي كان في مساره لاكتشاف العاصمة الفرنسية باريس. كان لديه حب عاطفي لفرنسا، وكوّن عنها فكرة عالية حول تاريخها وثقافتها، ورغبة شديدة في أن يتعرف إليها بشكل أحسن لخدمتها بشكل أفضل، وفي الوقت نفسه، كانت تنتابه حساسية لا يمكنه التغلب عليها تجاه العقل والقلب والبراغماتية العبثية التي تنشر نفسها هناك، والاستنتاج الاختزالي، والتقسيمات الاجتماعية والعقلية والعاطفية. هذه فرنسا التي تبَّجل بها، ولم يتمكن جاك بيرك من تحمل رؤيتها وهي تعزل نفسها بقسوة. وقال في أحد الأيام لأحد محاوريه: "سوف أمتعكم، لطالما كنت أصوليًا، بمعنى أني حاولت دائمًا أخْذ الأشياء من جذورها". أخْذ الأشياء من جذورها هو تعريف ماركس للتطرف: وجاك بيرك قد أخذه على محمل الجد.

لقد كان يرى البؤس عن كثب لكي يكون معارضاً للتقدم. حتى إنه كان يقول في بعض الأحيان عن نفسه، بلمسة من المفارقة، إنه آخر مؤيّد. لم يجر إغراؤه برثاء الماضي، فلمصلحة فرنسا والعالم، كان يرغب في رؤية ازدهار الثقافة الصناعية، والحضارة الصناعية، ومن ثم ما بعد الصناعية، بكل ما تحمله هذه التسميات من معنى. كان يرغب في المساعدة على تحقيقها بإرادته وجهده. لكنه كان قد فهم الكثير عن زمانه وأحس به، من داخل فرنسا وخارجها، لإخفاء الواقع. فهذه الحضارة قد توجد في يوم من الأيام: إلا أنها اليوم، لا وجود لها.

الغرب الفاقد لحضارته

يقول جاك بيرك: إن التحولات التي عرفتها المجتمعات الغربية بفضل التقدم التقني خاصة قد أسفرت عن فقدان الطابع الحضاري. "نتج عن تطوير الآلة بروز البروليتارية والحروب العالمية، وتزايد عدم المساواة بين الشعوب". إن الانتقاد الرئيسي الذي يوجهه زميل الحزب الشيوعي للاشتراكية في كل من نسختيه الرئيسيتين للقرن العشرين – "الاشتراكية الشرقية والاشتراكية الغربية" - هو عدم إدراك التناقض الثقافي الذي وضع فيه تقدم

التكنولوجيا المجتمعات الصناعية، كما كان ينتقدها كونها بقيت عاجزة أمام هذه المجتمعات الصناعية، بل أكثر من ذلك، كونها غضَّت النظر عن سرقة أو تحويل مفهوم التكنولوجيا. فهذه السرقة وهذا التحويل قد تم إخفاؤهما وراء شظايا ثقافات قديمة أعيد تدويرها، وكلفت بتزيين "المناظر الطبيعية المهجورة بالمعنى القديم والتي لم تعثر على معنى جديد." إن نقد جاك بيرك للمجتمع الصناعي هو تمثيل كامل لنهجه، وجزء من منظور مزدوج للفضاء والوعي.

الجرح وحده كفيل بالشفاء

يعتمد تشخيص جاك بيرك، الذي بدأ في ستينات القرن الماضي، على حالة العالم المبني على دليلين رئيسين: الأول هو البعد العالمي لكل واقع: "إن التوسع في التكنولوجيا وإمكانيات المعرفة، التي تغطي اليوم كامل مساحة الكرة الأرضية، يجعلها مجالًا فريدًا وجامعًا، حيث يكون الجزء والكل، والماضي والمستقبل، والداخلي والخارجي، في إقحام متبادل. "والثاني هو أن "قيمة العالم" هذه، بعيدًا عن كونها نسخة جديدة من شأنها إلغاء القيم المحددة، ترتبط بإصلاح هذه القيم. وبالتالي، فهي تؤسس جدلية ثابتة لأي مجتمع، بين الوصول إلى الذات والوصول

إلى العالم: "لا يكمن الاستقلال بالنسبة لأي شعب في عزلته، بل في الوصول إلى العالم. على العكس، لا يستطيع هذا الشعب الوصول إلى العالم إلا إذا حقق ذاته كشعب. وينطبق هذا الشرط على المجتمعات الغربية، مثلها مثل غيرها من الشعوب: حيث لا يمكن أن تنتمي إلى العالم إلا إذا حققت ذاتها، ولا يمكن أن تحقق ذاتها إلا من خلال انتمائها إلى العالم. وهذا يقودها، مثل باقي الشعوب، إلى البحث عن أصالتها، أي العلاقة الأكثر عمقًا والأكثر ابتكارًا بين قواعدها الأساسية ووضعها التاريخي".

وصف بيرك كما لم يصف أحد قبله الغرب الأوروبي على أنه مجتمع مضطهِد، يضطهد المجتمعات الأخرى، وعلى الأقل مجتمع مستبعِد، يستبعد غيره من المجتمعات. مستبعِد: بما أنه على مستوى البلدان الأوروبية، لا يطلق على الثورة التكنولوجية، لا أوروبية، لا فقدان الطابع الشخصي، بل الأمركة. يستبعد: بما أن الغرب الأوروبي، الذي احتفظ لنفسه بالقوة والأرباح، ظهر منذ زمن طويل في أعين الشعوب الأخرى، وربما لا يزال يبدو بالنسبة لهم، كمستغل غير نادم، وفي أفضل الأحوال كمعلم مهتم، معتبرًا نفسه وكيلاً ومندوبًا للتطور البشري.

اللاعقلانية السيئة والجيدة

لن يجد المرء فيه أبدًا إدانة قطعية للاَّعقلانية. في عام 1964، وضع في "تجريد العالم"، تمييزًا حاسمًا: إن اللاعقلانية السيئة تخص التناقص والتراكم والتوسط والفساد، وهي في الوقت نفسه أمر خلقي يرحب به دائمًا من قبل من يستمده من أصوله الحية. هذه اللاعقلانية لا تعارض العقلانية: "إن دليل العقلانية هو مكافأة الغريزة الصحيحة. كما أن المعقول والحساس ينتجان من الخلقي والأصلي". فمثل روسو، يعتقد بيرك أنه لا وجود للكمال؛ لا للأفراد ولا للمجتمعات، إذا كانت الحركة التي تحفزِّهم منفصلة عن هذا الخلقي وهذا المعقول.

إن بناء ديموقراطية إجراءات واعية بالتنظيم الجيد والإدارة الجيدة للشؤون العامة والعلاقات بين المواطنين أمر جدير بالثناء، ولا غنى عنه. ومن الضروري أيضًا ألاَّ يشعر هؤلاء المواطنون بأنهم معزولون بشكل فردي وجماعي عن قواعدهم بأسبقية طلبات التنظيم، خاصة عندما يكون هذا التنظيم مجرد تجسيد لمنطق اقتصادي باهظ. فبالنسبة لبيرك، لا يمكن أن تفسر الإجراءات والعقود التي تربط في شكل حزم بقايا الوجود والرأي والإجراء في سبيل خلق سياقاتنا وأنفسنا، لوحدها، أي هوية، شخصية

كانت أم جماعية، في نهاية المطاف. فالتنظيم الاجتماعي الذي تستند إليه، حتى وإن كان محصَّنًا ومعقولاً، يعاني من خلل لا يمكن علاجه بما أن "القيم" التي تدَّعي انتماءها إليها هي العملة الوحيدة التي طالما انخفضت قيمتها الاقتصادية التي تمت مصادرتها وتحويلها هي الأخرى.

كان بيرك يكرر في كل مناسبة: لا يجب استغلال اللاعقلانية في الحياة العامة. ومع ذلك، فإن هذه "الشبكة المتداولة حول الكوكب، مصنوعة من علاقاتنا المتعمدة، التي تنسج حداثتها كل يوم بشكل أكثر صرامة، لا يمكن أن تدَّعي العقلانية. إن العقلانية وفقًا لتنظيم الأشياء، هي غير عقلانية وفقًا لروح وطبيعة الإنسان، ما عدا ما يوجد في الإنسان، وبين البشر، وفي المجتمعات البشرية، ويخرج عن سيطرة الوظيفة التي يؤسس بها الاستبداد، فهي مليئة بالتهديدات المرعبة؛ مثل تلك التي لم يتمكن القرن العشرون من تجنبها في الوقت المناسب. إن الضيق الذي يدين به الرجل الحديث، والذي يعلنه التعبير الفني والإعلان الصحفي، قد يكون بداية لاضطرابات خطيرة.

هناك، بالنسبة لجاك بيرك، طريقتان لضرب استقرار المنطق، ومعه الجنس البشري: تكمن الطريقة الأولى في

السماح للاعقلانية بتجاوز العقل؛ أما الطريقة الثانية فتكمن في نكران اللاعقلانية التي يعتمد عليها العقل، إلى حد كبير، وبالتالي تعقيمها. في كلتا الحالتين، تتحكم اللاعقلانية في زمام الأمور، كونها المنتصر أو المكبوت. ولا شك أن تنظيم المجتمع البشري هو مسألة منطق. لكن المنطق نفسه هو شيء حي، إنه متجذر في التاريخ، ويتغذى بغيره. كما أننا، ما لم نَعُدْ إلى الحرمان من العقلية البدائية، يجب علينا أن نقبل تعددها، كما يجب علينا أن ندرك هذه الخلفيات، هذه الدعامات التي هي في جدلية دائمة معها، وتشكل بالنسبة لها احتياطيات المعاني ووعود قوية للتحديث والتجديد، وأفضل ضمان ضد الشكليات والتصلب.

يقابل جاك بيرك أفقية ودائرية الشبكة بعمودية الهوية. إن الهوية هي المرجع، وليس بالضرورة، كما أرادها باريز (Barrès)، في الإشارة إلى الإقليم بمصطلح "الجذر". هناك أنواع مختلفة من المراجع.

يذكر بيرك عدداً منها: إن الإقليم ليس بالضرورة ذاك الإقليم المفقود، يمكن أن يكون مستقبليًّا، يحلم به المرء أو يرغب فيه. يمكننا أيضًا أن نأخذ كمرجع شيئًا آخر غير الإقليم، على سبيل المثال: الاعتقاد، رفض الإيمان، أمر

إضافي أو ناقص، شيء ما كان موجودًا، ولكن أيضًا ما لم يكن موجودًا من قبل، الذاكرة، المستقبل، الإخلاص، ولكن أيضا قطع العلاقة، الغضب، الشك. حيث يكتب: "ربما البحث عن مرجع. هذا صحيح: يمكن تقليل الهوية للإشارة إلى مرجع."

حقوق أي إنسان؟

إذا كان لأزمة الغرب أي جانب إيجابي، فسيكون من المفيد تزويد الغربيين، إن أرادوا ذلك وإن كانوا قادرين على ذلك، فرصة حرمان أنفسهم من أدوارهم ووظائفهم وأيديولوجياتهم، ومن جميع هذه الحماية الطفولية التي يزيفونها في شكل عدوانية ومنافسة وشعرية صانعة وتجارية. نحن ننتمي إلى العالم، هذا هو الفكر البارز لجاك بيرك. يجب طي حقبة النزاعات القديمة والتهجمات. ليس هناك من معنى في التذرع بعدم الإيمان، على سبيل المثال، لإغلاق باب الغموض بشكل أفضل، أو الاعتقاد بمنح إذْن الحرمـــان مـن العيش. فمثل بول كلاودل (Paul Claudel)، ومثل فرانسوا بيروكس (François Perroux)، يسكن جاك بيرك بقوة أرض الرجال. ليس من باب الفخر، بل من باب الإخلاص لهذه الأرض، ومن باب التواضع والشعور

باستمرار وبشكل متزامن أنه مطالب بـ"الدوار الأفقي" الذي ينتاب المسافر والأفقية الصارمة للوعي. ليس من باب جنون العظمة أو أحلام اليقظة الغابرة أن يصدق المرء أنه متعلق بالآخرين، جميع الآخرين، هؤلاء القريبون البعيدون من بعضهم البعض، هؤلاء البعيدون القريبون من بعضهم البعض. إن الأمر الغريب، أو بالأحرى الفظيع، سيكون رؤية الغربيين يقيدون أنفسهم أكثر من أي وقت مضى بما يعيق تطورهم، وما يجعلهم يشعرون بالمرارة، ويزدادون قسوة، وما يصغر من حجمهم ويجعلهم غير مهمين.

الإيمان بالمشكلات

في نهاية ديباجة "المشرق الثاني"، نقرأ هذه الخطوط المثيرة للإعجاب حيث نسمع نغمة بيرك بكامل قوتها: "إن الحلم يحتمل أن تموت إذا كان ذلك يعني التنازل أمام قساوة العمل والقتال. وعلى العكس من ذلك، إذا كان ذلك يعني تحريك الاحتمالات في النفس، فإن الدعوة إلى وجود عامل خامل لإعادة توطين الماضي والمستقبل هو السماح بالعمل الإبداعي. ولكن ماذا إن بقي التناوب وضيعًا؟ عندها، تضمحل الأمور الإيجابية والسلبية، وتخمد التناقضات، وتقابل عنف التجديدات بتدني الإدمان".

ماذا يعني الحلم بالنسبة للغرب؟ محاولة الهروب من الواقع عن طريق الصعق؟ أو على العكس عن طريق غمر النفس في الحقيقة إلى درجة لا يمكن رؤيتها؟ إن الغرب لا يريد تغيير الحياة بعد الآن؛ بالكاد يحاول تحسينها. وقال بن بلة: "لم نكن لنثور يومًا إن لم نحلم بالثورة". وقال سوكارنو الذي افتتح في عام 1955 أول مؤتمر أفرو آسيوي انعقد في باندونج: "في مداولاتكم، لا تنقادوا بالمخاوف، بل بالأمل، والعزم، والمُثُل العليا، وأيضاً، بالأحلام."

إن الحلم هو موقف عقلاني، ويمثل الخيال، والتعاطف، والشعر أيضًا سبل عمل. إن الحلم هو إعادة هذا العمل في الشمولية التي جزأتها شبه العقلانية التكنوقراطية. وهو النظر إلى التاريخ وأولئك الذين يصنعونه، من ناحية أبعادهم المختلفة، وبالتالي من ناحية اتجاههم. وهو أيضًا تجريد الذات، وبهذا التجريد، التوسع. فمن خلال نبذ تعسف وجهة نظر معينة، وخداع النفس الذي يؤدي حتمًا إلى مصلحة أنانية، والمخططات المتفق عليها، والتفسيرات المؤيدة، نصل إلى فرص جديدة للبحث، وفي الوقت نفسه، نتعلم قراءة العالم من مستوى واقع وعمق لا يمكن للمرء أن يدَّعي بلوغه مادام يرى فيه حقلاً وميدان معركة وخلافًا ولغمًا. إن الحلم يضع الإنسان في اتصال مباشر مع

العالم: هذا ما اقترحه الاستخدام القديم للتفكير مع الاتهام. التفكير في الحياة، والتفكير في العالم. إن "التفكير في الموت" - كما يقول كليمنت ماروت (Clément Marot) - هو مواجهة رهيبة، دون أي فرصة للتهرب، بين الوعي والرغبة والأمل، كما هي، والعالم كما هو. إنه باب مغلق، ولكن باب مغلق من أجل الانفتاح.

إن الحلم بالجنة المفقودة، النهوض من قطار الثورة العلمية والتقنية، حلم "العودة إلى الأصل، إلى الطبيعة، إلى أنفسنا من أجل الإفصاح عن كل شيء"؟ هذا هراء! أولئك الذين يقرؤون بيرك يفقدون الأمل في هذه النقطة: "لا وجود لنا في هذه العودة." إن حلم الرجل الغربي هو عدم التهرب، وعدم اعتبار الغضب والريبة والرغبة التي تغزوه من باب الخسارة أو الربح، وهو إعادة الرؤية في كامل مجالها، وبكامل حدتها، وأن يسمح بأن يستولي عليه مجهول، وعدم سد الفجوة.

شرق دائمًا محتد

هذا هو مكان الموضوع الرئيسي "المشرق الثاني". في الواقع، ضاعف المجتمع الصناعي تعقد علاقة الإنسان بالطبيعة. فمن جهة، قام هذا المجتمع الصناعي بتغطيته

بحملة أكثر ثراءً تجعل من الصعب، إن لم نقل مستحيلاً، الوصول الفوري إلى الطبيعة. ومن جهة أخرى، وكتعويض لهذا الحرمان، اخترع هذا المجتمع، وبالأخص انطلاقًا من الرومانسية، إحساسًا بالطبيعة لا يعدو كونه تخليًا متنكراً كحنين إلى الماضي. وهكذا فإن إنسان المجتمع الصناعي ممزق بين "تحديدات مادية"، من ناحية، و"الإثارة العاطفية"، من ناحية أخرى: لم تمنحه كلاهما إمكانية الوصول إلى الطبيعة. ويحدث عندئذ تحول وتقسيم في إدراكه للطبيعة. فلم يعد بإمكان عقله ولا أحاسيسه الوصول العفوي إلى الطبيعة؛ إن صور الطبيعة، التي كانت مألوفة وموحية، تتدهور أكثر فأكثر لتصبح معطيات تتعلق بالبيئة.

لا يستطيع الإنسان الحديث العودة إلى الوضع السابق؛ فمن الأفضل له أن يسأل نفسه عن السبيل الجديد الذي يقدمه له الحاضر. لا شيء ممكن بالنسبة له ما لم يرفض، بشكل نهائي، حنينه إلى الجنّة، أو حتى إلى حد كبير، أي رغبة في علاقة بسيطة مع العالم. وقد حدث انعكاس كامل، يمكن التحسر عليه بقدر ما هو مرغوب فيه، ولكن يجب أن يُقبل بالضرورة حتى لا نتخلى عن أية حجة للعيش. لقد غيرت الآلة دليلها، ومعناها، ومسارها، وتمثيلنا للطبيعة.

وهكذا وجد الرجال والمجتمعات أنفسهم مطرودين بالحضارة الصناعية وعواقبها خارج النزل الطبيعي والميتافيزيقي، حيث كانوا يعيشون لفترة طويلة. وبالنسبة لجاك بيرك، فإن هذا الطرد، الذي يُذكَر بالولادة، هو حقيقة مركزية يتكلم عنها بثلاث نبرات مختلفة: إنها في المقام الأول ملاحظة صعبة؛ يتم فصل الإنسان من تقليد طويل، وهو إلمام طويل بالطبيعة. ثم يتفوق التفاؤل الإبداعي: فقد غيرت التكنولوجيا روابط الإنسانية مع الطبيعة أكثر مما حطمتها. فكتاب "المشرق الثاني" هو منظور لإعادة الإدماج. وأخيراً، بسبب هشاشتهم المتزايدة، فإن علاقات الإنسان بالطبيعة أكثر تشبعاً بما يسميه الغموض. وهكذا يضطر الأفراد والمجتمعات إلى إعادة التفكير العميق. هذا هو ما تدعو إليه جدلية التاريخي والأصولي. كان جاك بيرك يؤكد أنهما كلمتان يترصدهما النقد.

إن الدفاع عن التاريخي هو الدفاع عن الغائية: وهكذا نعارض جزءاً لا بأس به من الفكر البرجوازي. أما بالنسبة للأصولي، فإن للكلمة صدى مرجعيًا قويًّا.

إن مسار هذا الأصولي هو هذه العلاقة العميقة التي لا يمكن التنبؤ بها والمتعددة، مع العالم، ومع الآخرين ومع

النفس التي يصفها جاك بيرك بالأصالة. هذه الأصالة هي علاقة وتوسع. إنها أيضًا ذاكرة، وغالبًا هي ذاكرة مروعة، لكن ليس هذا فحسب: فالثورة الكبرى والكاتدرائيات هي أيضًا جزء من الذاكرة الفرنسية.

لا يمنع التأكيد

فكر جاك بيرك هو دعوة متزامنة ومتناقضة للاستمرارية وقطع العلاقة. لا استمرارية دون قطع العلاقة، ولكن لا معنى آخر لقطع العلاقة غير الاستمرارية. لا يمكن للأفراد ولا للمجتمعات، تحت طائلة التراجع، تجنب الأزمات التي تُذكِّرهم بكل من ضرورة قطع العلاقة والالتزام بالاستمرارية. بالنسبة لجاك بيرك، فإن التناوب بين الاستمرارية وقطع العلاقة لم يكن يومًا وضيعًا، ولا شفاهيًّا، ولا حتى دنيوياً.

بين الثقافات أو متعدد الثقافات؟

لتخيل التحول على المدى الطويل، سيكون من الضروري "العمل نحو بلوغ تركيبة مستقبلية". لن تتمكن الحضارة الأوروبية المستقبلية من التفاوض من موقع قوة، بل ستشارك في تحدٍّ جماعي. ولكنه وجد أن الحداثة قد كشفت جزئيًّا عن شلل اجتماعي مشدد جزئيًّا: لذلك كان

من الملحِّ الإعادة إلى الحياة الجماعية، القدرة على التبادل والتوفيق بين "قابلية التحويل مع ضرورة التنظيم". كيف؟ "من خلال تنظيم التعبير وزعزعة الاستقرار".

الكشف عن الواقع الراهن

هذا بالتأكيد هو قلب رسالة جاك بيرك إلى الغرب. لقد كرر ذلك في كثير من الأحيان وعلق عليه أكثر من مرة. إن التعبير، بالنسبة له، هو تحليل الواقع الراهن، وتعميقه، وحتى الكشف عنه، وهذا يفترض، على هذا النحو، تحقيقًا مزدوجًا، يخص الواقع المعاش والفكر.

أوبرا مينورا (2)
تاريخ وأنثروبولوجيا المغرب[1]
تقديم وملاحظات جياني ألبرغوني
(Gianni Albergoni)

بعد سنوات من مغادرة بيرك المغرب بصفته إداريًّا عسكريًّا، أنهى مذكراته وشُغل بعدها بفضل تعيينه بمعهد فرنسا والمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، مناصب مرموقة

(1) Gianni Albergoni. Opera Minora II, Histoire et anthropologie du Mghreb/Jacques Berque ; présentation et notes, Bouchène, 2001.

بالجامعة الباريسية، ميزت هاته السنوات العديد من أعمال النشر، أعمال خلاصة تجربته كباحث بالميدان، فقد قام بعديد التحقيقات على جميع أنواع المجتمع المغربي، بالمناطق الريفية وبالمدينة على امتداد أكثر من عشريَّتين، بالإضافة إلى أعمال أخرى في الحقبة نفسها التي تُظهر معرفته الخاصة بكل ما هو مغاربي تحصَّل عليها بفضل مخالطته الطويلة لهاته المجتمعات. ليس فقط بالأطلس الكبير، يمكن حتى التفكير في "المدن، المدن الجديدة والمدن القصديرية" والساحة المفضلة التي أخذت حيزاً كبيراً في دراسته المهمة بمدينة فاس.

لكن هاته الحقبة ليست فقط غنية بالأعمال من هذا القبيل، في السنوات التي نشر خلالها البنيات وسنة تتويجه الأكاديمي، كتب بيرك كذلك نصوصاً ما زال يحتفظ بها ولم تُنشر بعد. لم تُنشر لأن الأمر يتعلق بمحاولات ترك فيها بيرك عتاده الخاص وتأويله، لكنها -أي المحاولات- مليئة بالتجربة في هذا المجال وموثوقة، من قيمة الاستنتاجات التي خلُص إليها، استنتاجات أخذت شكل نظرة شاملة مملوءة بتفاصيل المجتمعات المغاربية، وبأحسن طريقة دراسة، فهي تتطرق إلى أفق واسع في حقل هاته الدراسات، أنجز حصيلة نقدية لمكتسباته المعرفية، طور التطلعات إلى المستقبل،

اقترح سبلاً. وبهذا وضع معنى إسهامه الخاص وحدَّد مواقفه.

في ظرف عامين، تحصلنا على نصوص مثل "ما معنى قبيلة شمال إفريقية؟"، "مائة وخمسة وعشرون سنة في كنف علم الاجتماع المغاربي" و"نحو دراسة سلوكيات مجتمع شمال إفريقيا" إضافة -وبطبيعة الحال- إلى الدرس البالغ الأهمية الذي يلقيه بمعهد فرنسا يساهم من خلاله في المجال نفسه. العنوانان الأولان هما أكثر دلالة، فكلاهما يمثلان جردًا عقلانيًّا لمجموع دراسات الممارسات الاستعمارية على المغرب، وهما بذلك يعدّان حالة المكان. يتطرق الأول إلى مكانة الفعل القبلي ومعناه في هاته المجتمعات. فالأول يطبق نفس الصيغة، لكنها موسعة إلى غاية ملاقاة مجموع سوسيولوجيا المغرب. ما هو جديد في هاته المحاولات ليس في الفعل الذي تتمثل فيه الطموحات النظرية التي استطاع بيرك حصرها لغاية الآن في تأويلات عتاده الخاص، بل نوع السلطة التي يتحكم من خلالها في موضوعه وطريقة التعبير عنه، فقلما قلنا إن الكاتب لم يكن عنده أبدًا الثقة في كتاباته، لكن الأمر يتعلق في هذا بسلطة فكرية خالصة، على الأقل النص الأول لم يمنح له أية سلطة فكرية بعد، هاته الحصيلة تؤخذ بالحسبان خارج مؤلفاته

وفي المجال الذي يهمنا، أنها نصوص قديمة نعود إليها باستمرار كنقاط مرجعية.

لم يكن بيرك يعتمد في كتاباته وقت الشباب على سابقيه، ففكره ليس من النوع الذي يبحث في الفروقات عمَّا يميزه عن باقي التصورات، ليس بحاجة إلى أن ينخرط فيما يراه غلطًا ضد هاته الفكرة أو تلك، ضد هذا الكاتب أو ذاك، فبيرك لا يفكر بفكرة الخلاف، مزاجه يميل قليلاً إلى المناظرة، قليل الاهتمام بالنقاش حول النظري، مارس الطريقة الخاصة في التعبير، المتمثلة في نقد أبحاث الآخرين، حتى حين يقوم بمثل هاته الممارسة، يغيب عنها حدة الجدال، والأحكام القاسية المشينة في موقفه في: "ما معنى قبيلة..."، "مائة وخمسة وعشرون سنة ..." له معنى كبير، فهو يركز على علم الاجتماع الاستعماري من أجل أن يوضح المكتسبات أكثر مما يوضح الثغرات، من أجل أن يبين كيفية بناء العلم الإيجابي بالرغم وعلى امتداد نهجه المعتاد (هذيانه) أكثر من التركيز على الانسدادات الخاصة بالوضعية، وبدرجة أقل على عمى كاتب يذكره. فهو يبيّن النقائص، لأنه يجب تداركها، لكن بدون التركيز أكثر على مسبباتها. والأمر نفسه ينطبق على التقارير النادرة والمقدمات التي أنجزها بيرك.

يتعلق الأمر بالفصل في هذا النموذج، حول مدى صحة إجابة جديدة على السؤال القديم: إجابة محل خلاف لكن بالرغم من ذلك هي تؤسس لمدرسة في أنثروبولوجيا المغرب والعالم العربي، والتي تجد في بيرك أكثر إحجامًا أمام هاته النظرية التي تبدو ونحُس أنها تحدٍّ، فنراه كله عزم على إيجاد تناقض صاحب هاته النظرية وعلى وضع موقفه. لا يُطلق حكمًا على ما هو غير مفيد أو غير مشرف، أو الدخول في جدال ما زال قائمًا منذ زمن، فقد عبر عن تردداته في مناسبتين في كتاباته السابقة "منطق التجمع بالمغرب" و"داخل المغرب"، والوجه الآخر لاستسلام البنيات بالأطلس الكبير، لكن الأمر يتعلق فقط بتعليقات مختصرة قليلة الإيحاءات أو بعبارة أخرى جد مختصرة.

يُركز بيرك على المجال النظري لبحثه قبل التطرق إلى نقد النموذج المقطعي، حيث عالج فكرة وجود لغز بقي بدون حل بالمجتمعات المغاربية، قد يكون هذا اللغز "قطعة فلسفية" لحل شيفرة هاته المجتمعات. فبماذا يتعلق الأمر؟ يتعلق الأمر بـ "جزيئات مختلفة النظم" في استقامة لا أدرية"، مبدأ يُسيِّر هذا "التنوع في النظم"، مبدأ تنوع هاته المجتمعات يفشي أحد أسرار المجتمعات المغاربية، إذا

سلَّمنا أن كل تنوع لديه مبدأ تفسيري واحد، ما لا يتوافق مع أسلوبه - أي بيرك - في التفكير، وأن يمنح لهذا المبدأ المجهول هاته المكانة والاهتمام، اصطلاح الاستقامة وتنوع مكوناته. يبدو أنه وجد نفسه مجبراً على متابعة النظرية التي انتقدها بشدة بعد أن خطى خطوات فيها، تبدو المصطلحات المكونة للغز معدة خصيصًا للنموذج المقطعي، نوع من الرسم المجوف، أو رد على الاقتصاد الرسمي. فالسؤال المطروح هو بالضبط السؤال الذي يدَّعي النموذج الإجابة عليه. وجود هذا السؤال في غير محله لا يمنع من الاعتراف أن بيرك له الفضل في أخذ قرار: طرح سؤال جيد.

أوبيرا مينورا (3)
علوم اجتماعية وتصفية استعمار[1]
تحرير وتقديم فرانسوا بويون
(François Pouillon)

لقد أشرنا إلى أهمية السياسة في مؤلف بيرك أكثر من المجالات الأخرى، فمسائل التدخلات هاته لم تكن بالنسبة له ثانوية أو مجرد مسالة ملحقة بعمله الأكاديمي. لم

(1) François Pouillon. Jacques Berque, Sciences sociales et décolonisation- Opéra Minora III (éd. et présentation), Paris, Bouchène, 2001.

يكن البحث الخالص في هاته المسالة قائمًا أبدًا. لا ننسى أن البحث بالنسبة له ليس انعزالاً بل هو نفي. خلال فترات نشاطاته هاته، اكتسب تجربة كبيرة. على غرار "مونتاني" الوظيفة القبلية لا تتنازل عن وظيفة التدريس. شغف الدراسة وسحر الكتاب (إلى غاية كتابه الممتاز المتعلق بالقرآن الذي سخَّر له جهده في الأوقات الأخيرة) يمكنهما زحزحة قساوة الأوامر القيادية، فلنتذكر بأي وجدان حين يتحدث عن هذا الشغف المسيطر عليه.

يلزمنا بيرك على السهولة في التعامل مع التاريخ بالرجوع إلى الماضي. تقطيع الحقب التاريخية ليس بديهيًّا، حتى وإن رأى الجميع قدوم الاضطرابات وظهور بعض من المعالم مع التقطيعات الكبرى، أو -إن صح التعبير- التحولات بهذا الزمن التي تدخلنا في مجال "حق الشعوب في التصرف في مصيرها" والمجال الذي يقودنا إلى التخلص من الوهم الوطني. تجدر الإشارة إلى أن هذا لا يظهر بوضوح في نصوصنا.

من الصعب تحديد بدقة التاريخ الذي أخذ فيه بيرك موقفه من الاستقلال. لا نتكلم عن انتقادات النظام الاستعماري المملوء بالاختلالات الخطيرة، اللامساواة المثيرة، وبالأخص الإقصاء الشرعي الذي يصبح مع الوقت غير قابل للاحتمال.

وهذا ما كان ينتقده باستمرار بيرك الأب بالرغم من أنهما (بيرك الابن والأب) لم يكونا من معادي الاستعمار من وجهة نظر سياسية، بل على العكس؛ لأنهما يعلمان أن دائرة الإنصاف تشمل كذلك النظام الاستعماري.

1- بدءاً من سنة 1958، نظَّم جاك بيرك في إطار محاضرته بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا -القسم الخامس للعلوم الاقتصادية والاجتماعية- ملتقيات مصغرة على مراحل متغيرة، سماها "نقاشات متداخلة حول المجتمعات المسلمة"، موجهة إلى إعادة إدراج هذا الفضاء الثقافي في "التقدم المعاصر للعلوم الإنسانية"؛ فقد دعا إلى مواجهات مع أبرز المتخصصين في مجالات أخرى. فمنذ السنة الأولى، تناقش مع كل من شارل بيتلهايم (Charles Bettlheim)، كلود لوفي ستروس (Claude Lévi-Strauss). عرفت هاته الصيغة نجاحًا، وأخذت شهرتها تتسع في سنة 1960، وبالأخص بعد الدعم المنتظم لجون باول شارناي (Jean-Paul Charnay). تسمح هاته الأعمال بنشر مصنف جماعي، اشترك في نشره مع جون باول شارناي: (من الإمبريالية إلى تصفية الاستعمار)، (المعايير والقيم في الإسلام المعاصر)، (الازدواجية في الثقافة العربية).

2- إعادة تشكيل الوصاية الفرنسية على المغرب؟"

مجلة العوالم الإسلامية والمتوسطية" الرقم 93-84 - 1997.

من خلال تجاربه وبوصفه مختصًا في علم الاجتماع، فهو مقتنع بأن الثورة التقنية الاقتصادية يجب أن تتم في البنيات الأنثروبولوجية، وفي الشخصية والأصالة، هذا هو القالب الذي تنمو عليه "الأنواع المتعددة للمبادرات القاعدية". وعلى نطاق واسع، لم ينخرط بيرك أبدًا في زمرة التقديس الاجتماعي الذي فرض نفسه في سنوات ما بعد الحرب، في الصراع القائم بين التقليد والحداثة. ساخط برؤية المجموعات القاعدية التي يريدون تفكيكها بسبب "اعتراضها" للتطور، ويربطون ذلك بالركود، والتخلف، والرجوع إلى الماضي. على العكس هو يدرك أن الغموض الذي يحجبه هذا الإعلان الرسمي تختفي وراءه عوالم جديدة، غريبة تمامًا في شكل لباسها مقارنة بملابس الأوروبيين. فكيف نجرؤ أن نفكر بشكل متناقض في الهوية والتاريخ؟ هل يمكن للثورات أن تستمد جذورها من عالم آخر غير الواقع؟

من الملاحظ أن بيرك لم يتوقف عن الحلم برؤية "الجماعة على الركب"، فماهيَّة المجتمع الطائفي مع التاريخ التصاعدي للحداثة هو في هذا التزاوج، وهو ما أشار إليه في نص أدبي صرح به مؤخرًا.

بالنسبة للعرب، الذين تحدوا بانتصار كل أخطار الانقراض والاستيعاب، تمردوا ضد كل خصوصية، أرادوا أن يحصروهم فيها، وضد كل شمولية أرادوا أن يستعبدوهم بها. وساد كل واحد من الرفضين؛ كلٌّ بدوره.

الاستعمار، تصفية الاستعمار، كيف يمكن تحديد مفهومهما؟

هذا النص هو حصيلة سلسلة نشرت (أو أعيد نشرها) في العمل الجماعي (من الإمبريالية إلى تصفية الاستعمار، دار الكتاب "مينوي"- 1965 تحت عنوان "مجال وحدود ظاهرة الاستعمار" (ص.285-294). أشار بيرك إلى تصحيحات "من الممكن عدم تجاهل تتبع مختلف مراحل نضج الأطروحة". بالرغم من أن هاته المتغيرات لا تظهر لنا مهمة من أجل الإشارة إليها في نقاط.

من أجل نقل جديد للعلوم وللقيم

قُدم هذا النص الخبري إلى اليونيسكو في إطار برنامج "حول شروط نقل المعارف" شهر ديسمبر 1975. يبين استمرارية التفكير الذي سيُفعَّل من جديد في سنوات الثمانينيات حول التربية (أو حول الهيمنة الثقافية)، بحث بالتعاون مع العالم الثالث، سنة 1983، تربية أبناء الهجرة، سنة 1985، الأقليات الجديدة في المدينة الأوروبية، سنة 1989."

قائمة أعمال جاك بيرك

كتب حوالي ثلاثين كتابًا بين عامي 1950 و1995 ومئات المقالات، لا سيما في علم اجتماع الدول العربية، والحضارة الإسلامية، والعلوم الإسلامية، والخصوصيات الأنثروبولوجية لمجتمعات العالم العربي الإسلامي، من المغرب إلى المشرق، والعلاقات بين الإسلام والغرب، ومنها:

1. أي إسلام؟

Quel islam ? (Arles, Actes Sud, 2003)

2. من الفرات إلى الأطلس

De L'Euphrate à l'Atlas (2 Vol.) (Actes Sud-Sindbad, 1999)

3. قضية لن تخسر أبدًا. من أجل بحر أبيض متوسط متعدد

Une cause jamais perdue. Pour une Méditerranée plurielle, 1995 (Paris, Albin Michel, 1998)

4. العلماء، مؤسسو المغرب العربي المنتفضون

Ulémas, fondateurs insurgés du Maghreb, XVIIe siècle (Actes Sud, 1998)

5. العرب، متبوعة بالأندلسيات

Les Arabes, suivi de Andalousies (Actes Sud-Sindbad, 1997)

6. كتاب الأغاني

Musiques sur le fleuve, "Kitâb al-Aghâni" d’Al-Asfahanî (Albin Michel, 1996)

7. إعادة قراءة القرآن

Relire le Coran (Albin Michel, 1993)

8. يبقى هناك مستقبل

Il reste un avenir (Paris, Arléa, 1993)

9. القرآن. محاولة ترجمة.

Le Coran. Essai de traduction (Paris, Sindbad, 1991) (Albin Michel, 1995)

10. ما وراء النيل، نصوص طه حسين

Au-delà du Nil, textes de Taha Hussein, Gallimard 1990)

11. ذاكرة الضفتين

Mémoires des deux rives (Le Seuil, 1989)

12. الهجرة إلى مدرسة الجمهورية، تقرير إلى وزير التربية الوطنية

L’immigration à l’école de la République Rapport au ministre de l’Éducation nationale (CNDP, 1985)

13. أشكال الإيمان في الإسلام

Aspects de la foi de l'Islam, Bruxelles, Publications des Facultés St Louis (1985)

14. الأندلسيات، درس الختام في كوليج دو فرانس

Andalousies Leçon de clôture au Collège de France (Sindbad, 1981)

15. الإسلام في التحدي

L’Islam au défi (Paris, Gallimard, 1980)

16. الأغاني العربية العشر العظيمة المعادية للإسلام

Les Dix grandes odes arabes de l’Anté-islam (les "Mu’allaqât", traduction) (Sindbad, 1979)

17. داخل المغرب العربي

L’Intérieur du Maghreb, XV-XIXè siècle (Gallimard, 1978)

18. من الفرات إلى الأطلس

De l’Euphrate à l’Atlas, Paris, Sindbad, 1978

19. البلاد العربية

Arabies (Paris, Stock, 1978)

20. المغرب العربي، التاريخ والمجتمع

Maghreb, histoire et sociétés Alger, Duculot/S.N.E.D., 1974)

21. اللغات العربية في الوقت الحاضر

Langages arabes du présent (Gallimard, 1974)

22. العرب

Les Arabes (Sindbad, 1973)

23. المشرق الثاني

L’Orient second (Gallimard, 1970)

24. مصر، إمبريالية وثورة

L’Égypte, impérialisme et révolution (Gallimard, 1967)

25. استنزاف العالم

Dépossession du monde (Le Seuil, 1964)

26. المغرب العربي بين الحربين

Le Maghreb entre deux guerres (Le Seuil, 1962)

27. العرب بين الأمس والغد

Les Arabes d’hier à demain (Le Seuil, 1960)

28. التاريخ الاجتماعي لقرية مصرية

Histoire sociale d’un village égyptien au XXe siècle, La Haye, Mouton & Cie 1957

29. النظم الاجتماعية في الأطلس الكبير

Structures sociales du Haut-Atlas (Paris, PUF, 1955)